الممر الضيق

رواية

إيمان عبد العظيم محمد



الكتاب : الممر الضيق (رواية)

المؤلف : إيمان عبد العظيم

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٧٣٦٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 41 - 8

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم-القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)-٦٤/٦٥ ٠١٨٨٨٩٠٠(٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : الفنان أمين الصيرفي

الممر الضيق

إيمان عبد العظيم محمد

(١)

فراق الأرواح

كان الوقت متأخرًا وقد شارفت الساعة على الثامنة ليلاً، كُنَّا في فصل الشتاء، والليل يسدل ستاره من السادسة مساء.

كانت الشوارع غارقة في ماء المطر، والسيارات تمشي كالسلحفاة على أرض الشارع، كنت أشعر بأني في مكان وزمن آخر بعيدًا تمامًا عمَّا يدور حولي من حوارات بين الركاب وبعضهم، وبين السائق الذي كان شُغله الشاغل أن يَرُشَ العربات الملاكي بالماء، بينما يُسرع على جانبي الطريق.

كل تفكيري كان مُنصَّبًا على رؤيته قبل أن يسافر ويعود إلى دياره ووطنه في كوسفو؛ فقد كان يحاول منذ فترة أن يفعل أي شيء ليكون بجانب أسرته، بالرغم من كل ما كنت أشعر به من ألم، كأن أحدًا ما يعبث بقوة بين ضلوعي لانتزاع قلبي بسرعة خاطفة، احتياجي الشديد إليه في هذه الفترة الحالكة العصيبة التي تمرّ بيّ أنا وأسرتي، والتي أصبحتُ العائل الوحيد لها، فغدوت مسؤولة بمفردي عن أبوايّ.

بالرغم من كل العقبات والصعاب التي تحيط بي كالجبال من كل جانب، بينما أنا محاصرة بداخل هذا الممر الضيق، كان وجوده إلى جانبي يمثل لي شعاع النور الذي ينتظرني في أخر الممر الطويل والنفق المظلم.
لكنني لا أستطيع غير أن أشجعه على أداء واجبه والعودة إلى وطنه المكلوب الذي يحتاج إليه، ليقف بجانب أسرته التي لم تكن تغيب عن باله لحظة واحدة في وقت الأزمة.

ماذا يسعني أن أفعل؟ أو أقول له؟ غير أن أودعه بابتسامة داعية أن يعيده الله لي سالمًا، وأن يجعل وجوده في وطنه تجسيدا لواجبه

المقدس، بأن يكلله الله بالنصر وأن يهدي أهله وعشيرته إلى كل الخير، وطرد الغزاة الأعداء.

وصلتُ إلى المطار، كنتُ أجري وأنا ألهث من شدة توتري، فلم أرَ أمامي سوى ضوء الصالة الداخلية، فبدا لي المطار كأنه خالٍ تمامًا من البشر، لم أسمع شيئًا سوى دقات قلبي المتلاحقة، بالرغم من ضجيج الأصوات بألسنة مختلفة الأجناس.

شعرت بذوبان لكياني كله، فبدأ العرق يندى على جبيني بالرغم من أننا في يناير، ذروة الشتاء قارص البرودة ليلاً.
وقعت عيناي أخيرًا على «آياد»، كانت بجانبه حقيبة صغيرة، وأخرى على كتفه، يجلس وحيدًا في ساحة الانتظار مُنكس الرأس، ينتظر سماع النداء الأخير لكي يستعد للصعود لطائرته المغادرة إلى مطار البوسنة، فلم يكن هناك طيران مدني في منطقة الحرب.

رفع نظره فجأة كأنه قد شعر بوجودي، فرأيت وجهه يُضيء وتُبشر قسماته، فانفرجتْ أساريره معبرًا بكل عضلة في وجهه المُتلألئ بالفرح عن سعادته برؤيتي.

جلستُ بجانبه، وشعرت بإحساس مُلح أن أمسك يديه، لكن الحياء منعني، أحسستُ أنَّ حدقتا عيناه تحتويني كليّ، ثم تحتفظ جفونه بصورتي داخل مخيّلته، فقلت له بصوت مرتعش:

منة: كان لازم أشوفَكْ قبل ما تسافر وأدعي لك إن ربنا يوفقك وترجع تاني مصر ولاَّ مش ناوي؟

أقول تلك الجملة وأنا أُغالب دموعي بين رموشي بصعوبة.

آياد: منَّةَ الله.. إذا قلت لك دلوقتي بس إن عندي الشجاعة إني أعترف لك بحبي، أنا بحبك، ولو وصفت لك حبي يمكن ما تصدقيش، وتقولي ده بيقول كده لأنه مسافر وجايز ميرجعش أبدًا، أو يمكن يموت وهوه راجع بلده اللي فيها حرب ونزعات عرقية ممكن تصفي كل المسلمين هناك، و الروس ممكن يموتوه، يعني الهلاك والموت محاصرني من كل جنب، بس إذا مرجعتش وحصل قضاء الله فيّ لازم تصدقي دلوقتي وأنا بحلف لك بالله إن عمري ما حبيت ولا ححب واحدة غيرك.

ابتسمت بمرارة بينما الألم والفرح يعتصراني كلاهما معًا، فلم أكن أدري هل أبكي أم أضحك من السعادة؟ فقلت بكلمات متلعّثمة:

منة: مصدقة كل حرف قلته، والله العظيم أنا كمان بحبك وحفضل أحبك لغاية ما أموت، يمكن منشوفش بعض تاني، أو ربنا ميكنش قاسم لنا إننا نلتقي ولا نكون لبعض، لكن الحب اللي في قلبي لك حيفضل جوايا لغاية ما أموت.

بدأتْ الدموع تتجمع في مُقلتيه بعدها،، وجدت نفسي أبكي لأن هذا الوقت الذي نعترف فيه بحبنا هو وقت الفراق الذي لا نعرف له لقاء.

جاء صوت المضيفة يطلب استعداد ركاب الطائرة المتجهة إلى البوسنة، فنظر لي «آياد» وهو يخلع الكوفية التي كان يلتفح بها ويلفها حول رقبتي برفق، فشعرت كأنه يحيط إصبعي بخاتم الزواج.

آياد: هذه سترىطنا معًا إلى الأبد، لا تُفرطي فيها حتى إذا تزوجت بآخر، أعطيها لابنك أو ابنتك وقولي لهم هذه من إنسان عزيز لديّ، كان ممكن يكون والدكم لكن النصيب أقوى من الجميع.

تخرج الكلماتُ بحماس شديد مني كقذائف المدفعية الثقيلة.

منة: آياد سأنتظر عودتك مهما طال الوقت، مش معقول بعد لما ألاقي نفسي المفقودة اللي كنت بدور عليها من يوم ما اتولدتْ أتخلى عنها بالسهولة دي، ما تتأخرش على لأني بقية أهلك، أفتكر انك مش سايب إنسانة بتحبها وبتبادلك نفس الحب وبس، أنا حلفت لك إني بحبك وإنك الوحيد اللي حرك مشاعر كالجبال، كانت مدفونة بداخلي إحنا اتعاهدنا على الحب، ووثّقنا حبنا باسم الله وعهده، وإن شاء الله ترجع تستردني في يوم م الأيام، مش هاكون إلا ليك، لولا ظروف عائلتي الشاقة ومرض أبي وكوني عائلُهم الوحيد كنت سافرت معاك لآخر الدنيا، أجاهد معاك وأدافع معاك عن وطنك وأهلك.

ينظر في مودة هائلة، وبريق الأمل يشعُ من داخل عيناه إلى نظراته القوية اللاَّمعة.

آياد : أنا حاسس إني ممكن دلوقتي أستقبل الموت، وأواجه كل المخاطر وأنا فرحان ومرتاح، لأن كلامك ده ملاني طاقة ونور وحب، يكفيني لآخر لحظة في عمري، ما شاء الله لي من عمر طال أم قصُر.

منة : لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كان هذا المشهد ووداعي «لآياد» يتكرر دائمًا في أحلامي، تقريبا في كل ليلة، فكان يتكرر بدقة تفاصيله بنفس قوة الألم، بكل المشاعر التي اجتاحتني كالطوفان. كنت أستطيع استرجاع كل كلمة وكل لفظ حتى بعد مرور خمس سنوات على سفره، وأنا لم أسمع عنه أو منه منذ أنْ افترقنا.

سأستفيض في شرح تفاصيل علاقتي به، وقصتي معه منذ البداية، سأرجع للوراء عشر سنوات، حين كنتُ في بداية السَّنة الأولى في كلية التربية بجامعة الأزهر.

كنت أعيش مع أمي وأبي وأخي، كانت أسرتي تنتمي أساسًا للطبقة المتوسطة، حيث أنَّ أبي كان يعمل موظفًا في قسم الحسابات في إحدى الشركات الحكومية، لم يكن لنا دخل آخر غير مرتب والدي، انتقلنا بمرور الزمن ومع تزايد التباين الواضح في مجتمعنا والاختلاف الفظيع بين الطبقات إلى الطبقة الفقيرة، حاولنا أن نبدو في أحسن حال لكي نحافظ على مظهرنا الاجتماعي، مرت بنا الأيام على خير بالرغم من أننا لم نستطع العيش بطريقة مريحة، أو نشتري كل احتياجاتنا التي كانت تتزايد كلما كنا نكبر ونتدرج في الدراسة.

كان أبي يفعل المستحيل لكي نكبر ونتعلم، فاضطرَ إلى أن يعمل بعد الظهر سائق تاكسي ليوفر لنا نفقات الحياة والتعليم، الذي دخل في المرحلة الثانوية لأخي أولاً، ثم لحقتُ به أنا، فقد كان أخي «أحمد» يكبرني بثلاثة أعوام بالرغم من شعوري بأنه الأصغر.

ربما لأنه كان يشعر دائمًا بالتمرد على حياتنا، كانتْ توجد بيننا وبينه دائمًا فجوة بالرغم من حبه لأبوانا وحبهما له، ومحاولتهما

إرضائه في كل الأحيان على حسابي أنا، فكنت أقول في نفسي ربما لأنه ولد، وربما لأنهم يشعرون أنني فتاة لن أكون مسئولة عنهم فيما بعد، مما جعلني أسأل أمي بسذاجة في أحد الأيام:

– ماما هوه إنتوا بتفضلوا أحمد عليّه ليه؟

ردت أمي وهي تضحك: يا عبيطة انتوا حبكوا وغلواتكوا واحدة، بس إنتي حتتجوزي بإذن الله، وحتنتمي لرجل غريب وحتحملي اسمه، مش حتكوني مُطالبة برعايتنا، لكن «أحمد» ابننا البكر، هو المطالب بالاهتمام بنا والإنفاق علينا في كِبر سننا وعدم قدرتنا على تحمل المسئوليات وقت بلوغ سن الشيخوخة، ربنا ميردناش لأرذل العمر.

التمستُ لهم بعض العذر بعد سماعي كلام أمي في أسباب معاملتهم الخاصة لـ «أحمد» بدون مبررات واضحة يقينية لهذا التمييز، كل ما هنالك أنهم يمشون على درب آبائهم والمعتقدات الاجتماعية السائدة، والموروثات التاريخية التي تفترض أن الولد أو الذكر هو فقط المُطالب بالاعتناء بأبويه والبر بهما، هذه النظرية الفرضيّة بدون أيّة احتمالات جدلية هي السائدة في المجتمعات الشرقية.

كان أخي «أحمد» قد أنهى دراسته في كلية العلوم بتفوق، وبدأ في الاستعداد للماجستير، فشجعه أبي بل كاد يطير من الفرح وقال له:

–أنا مستعد للعمل أربعة وعشرين ساعة متواصلة حتى تتفرغ لدراستك يا ابني.

أحمد: المشكلة مش في الدراسة والتفرّغ لها، أنا محتاج الخبرة والإشراف العملي، أستاذي اللي حيشرف عالرسالة شريك في شركة مستحضرات طبية وأدوات تجميل عايزني أشتغل فيها وأذْرس في نفس الوقت.

أبي: أيه اللي يخليك تشتغل الوقت ممكن يسرقك، لكن التّفرغ للماجستير أفضل.

أحمد: ماتخفش عليه، الدكتور «سالم» حيراعيني في مواعيد الشغل لأنه حيستفيد من تفوقي، وفي المقابل حيقدر يخلّص معايا الرسالة، المرتب حيكون بسيط في الأول لكن أنا عندي إحساس إني حستفيد كويس من قربي له، وحوصل لكل اللي بتمناه في أقصر وقت ممكن.

بالكاد كان المرتب يغطي نفقات ملابسه الجديدة اللازمة لمظهره بالشركة ونفقات المواصلات، أما مصاريف دراسة الماجستير عادت لتنّصب على ظهر أبي مرة أخرى.

في نفس الوقت كنتُ في الثانوية الأزهرية أُكافح وحدي بدون أن أطلب من أبي دروسًا خاصة في أي مادة.

اكتفيت بأخذ مجموعة في مادة الإنجليزي بالمدرسة بدلاً من إرهاقه بمال إضافي ينفقه على الدروس الخصوصية، بالرغم من أن أحمد كان يأخذ دروسًا أثناء الثانوية في أربع مواد، فقد كان حلمه أن يدخل كلية الطب، لكن مجموعه أدخله العلوم، وقتها دار جدال عنيف بينهما.

أحمد: لازم أعيد السنة، طول عمري نفسي أدخل الطب، العلوم مش هي اللي في دماغي.

نظر أبي إليه في وجوم وهو يستجمع شجاعته

أبي: مقدرش يا ابني حفضل في موال الثانوية العامة ده سنتين ورا بعض، واختك خلاص كام سنة وتبقى في الثانوية كمان، ماقدرش على مصاريف الدروس والكتب الخارجية دي

قطمت وسطي، أنا وأمك بقى لنا ٤ سنين مش عارفين نجيب هدمة جديدة لنفسنا.

«أحمد» في امتعاض شديد: أعملوا اللي يريحكوا، بس إذا ضاع مستقبلي حتبقوا انتوا السبب.

هذا الموقف أدى بأخي أنْ ينتهز كل الفرص لكي يأخذ من رفض أبي أنْ يعيد الثانوية ذريعة في جعله دائما يشعر بالتقصير في حقه وعدم استطاعته تحسين مستقبل ابنه الوحيد كما كان يدَّعي أخي، فمن وجهة نظره لم يبذل والدي كل ما في استطاعته لرُقيّ شأنه وتفوقه.

كنتُ في أوقات كثيرة أشعر بالتمرد على هذا الوضع غير العادل لكفتي الميزان، فأنا أيضًا لديّ أحلامي بأن أدخل كلية اللغات والترجمة، أو كلية التجارة الخارجية، لكن في ظل الوضع الراهن اكتفيت بأية كلية يقودني لها مجموعي، بإمكانياتي تحت وطأة الظروف المتاحة أمامي.

بالطبع جاء مجموعي في المرحلة الثانية، وجاء التنسيق معلنًا عن التحاقي بكلية التربية جامعة الأزهر، فلم أتذمر وحمدتُ الله

وقلتُ قدَّر الله وما شاء فعل، ربما تكون هذه الكلية فاتحة خير عليّ، ربما أسعد بكوني فيها، ومنها أستطيع أن أخرج للحياة العملية ويوفقني الله في العثور على وظيفة جيدة تمكنني أن أدبر بعض المال للإسهام في مصروف البيت، فأرفع من بعض الحِمل الثقيل من على كتفي والدي لكي أُجهز نفسي، فأمي كانت دائما تحمل هم جهازي كيف إنني سأحتاج لمال كثير لشراء مستلزمات المطبخ ومفروشات غرفة النوم، ونحن لم نستعد بخردلة كما كانت تقول

أمي: اللي حيتقدم لبنتك حيهرب لما يعرف اننا مش مستعدين بأي حاجة علشانها، لازم يجيي واحد يوافق ياخدها بشنطة هدومها، وهما يجهزوا نفسهم من الصفر.

أبي: خليها على الله، وبعدين مش معقول حيجيها واحد جاهز من مجاميعه، أكيد حيبقى لسه عليه التزامات، نبقى نجهز وقتها اللي نقدر عليه وهما يكملوا الباقي بعد ما ربنا يكرمهم ويتجوزوا، يعني مش لازم كل حاجة مرة واحدة، كلنا بدأنا بحاجات متواضعة في أول جوازنا كنتُ أشعرُ بالمهانة لأنه ينقصني أشياءٌ كثيرة، ربما تُعيبني لكنني كنت

أحاول دائما أن أكون إيجابية ولا أحسب حساب لتفاصيل المستقبل.

كل ما كان يشغلني بينما أخطو في أول يوم لي داخل الكلية أن أفعل ما في وسعي لكي أنْهي دراستي في سنوات الدراسة بانتظام محكم بدون تأخير، ثم أحاول إيجاد وظيفة جيدة أستطيع منها أن أزود معلوماتي وإمكانياتي للعمل، كأخذ كورس لغة أو كمبيوتر أو الاثنين معًا، لكي أرتقي لوظيفة أفضل تجعلني في موقف قوة، فأصرف على نفسي وأجُهز ما يلزمني كما ينبغي، وعلى ذوقي أنا وبمالي وبمجهودي الخاص بدون إرهاق والدي، أو طلب مساعدة أخي «أحمد» أو التفضّل لأحد من العرسان عليّ فيتقدم لخطبتي من باب جبر الخواطر.

نجحتُ بحمد الله في العام الأول وانتقلت للسنة الثانية، كانت جامعة الأزهر ذات طبيعة خاصة جدًا، فهي تتبع المجلس الأعلى للأزهر الشريف ولها مقومات متفردة إلى جانب كوننا ندرس مواد الشريعة الإسلامية بشكل مكثف وأساسي، كنتُ في أيام المدرسة أجد هذه المواد ثقيلة على نفسي، ولكن بعد فترة قصيرة

من خلال الدراسة الجامعية أحببت دراستها، وجدت أنها شيقة للغاية وفيها كل مناهج الحياة المختلفة التي ساعدتني فيما بعد على اكتشاف نفسي وفهمي للحياة بالتدريج بشكل إيجابي وأسلوب متطوّر وسليم على مدار حياتي، جعلتني أتقبل أوضاعي بشكل أفضل.

استطاع «أحمد» أن يحدد ميعاد لمناقشة رسالته، وكان أبي في منتهى السعادة كأنه هو الذي سيأخذ الماجستير وليس أخي، كنت قد لاحظت خلال العامين السابقين التغيرات الواضحة التي طرأت على أخي منذ بداية عمله، ظهرت أنانيته بشكل مُفرط، جعله تفوقه يتغير تمامًا، أصبح يشعر بالتذمر علينا وعلى حياتنا أكثر من ذي قبل، وأيقن أن وضعنا الاجتماعي أصبح لا يناسبه، فازدادت طباعه وأحواله تحوّلا من ناحيتنا أكثر فأكثر، ولم يعد يُخفى علينا بعده الشديد عنَّا وعن واقعنا الصعب ورفضه لهذا الواقع.

في إحدى المرات كنت أنا و«أحمد» بمفردنا في المنزل فطلب مني كوب شاي فصنعته له وجلست أحاول أن أعرف ماذا يدور في رأسه بالضبط.

وسألته مباشرة: ليه يا «أحمد» دايمًا تساعد في إعطاء أبي وأمي الإحساس بالتقصير بالرغم من انك عارف كويس هما أد ايه بيحبوك؟ مش بتاخد بالك من تضحياتهم المستمرة.

فنظر لِيَّ بحدة وقال بلهجة جافة:

–إنتي زعلانة ليه؟ هما لازم يشقوا ويتعبوا علشانّا، ده واجبهم تجاهنا، ولاَّ حضرتك بتغيري مني علشان هما بينفذوا لي كل طلباتي وأنتي لأ؟ بلاش حقد.

فَرَغْرَغَتْ عيناي بالدموع من كلامه اللاَّذع وقلت:

– يا «أحمد» أنا مش غيرانه منك، أنا خايفة عليهم وصعبانين علي جدًا، واللي مضايقني أكتر إنك مش حاسس بيهم، ولا بمقدار تعبهم وتضحياتهم بكل حاجة عشانا.

رد علي بفتور شديد: خلليكي في نفسك وفي جهازك اللي لسه محدش فيهم عمل فيه حاجة، بصي لمستقبلك، وملكيش دعوة بي، هما مبسوطين كده.

لم أعرف هل أبكي أم أضحك من كلامه، فقد كان في منتهى اللامبالاة وعدم الذوق.

حاولت التحدث معه عدة مرات أخرى بصراحة، ولكنَّه لم يعطني فرصة لأقرّب منه، فأفتح له قلبي ويفتح لي قلبه.
كان أبوايّ يلتمسان له الأعذار في كل الأحوال، ويجدان له دائمًا مبررات جديدة كل يوم، لا أعرف لماذا؟ فقد كنتُ أستغرب من موقفهما تجاهه، وتنفيذهما لكلامه بالحرف الواحد بدون تفكير، وكأن أخي أصبح هو الآمر الناهي في البيت، كل كلامه مطاع، كل طلباته أوامر غير قابلة للتغيير أو للمناقشة.

هل يمكن أن أُحب إنسان إلى هذه الدرجة؟ أن يكون حبي بهذا الأسلوب لشخص فيجعله يتحول إلى روح موحشة أنانية لا يرى غير نفسه؟ تطلعاته وطموحه الشخصي؟ فيستطيع أن ينسى أو يتناسى أبويه وعطائهم المستمر، وتضحياتهم بكل غالي

ونفيس من راحتهم وسعادتهم، بل ومن آدميتهم حتى يجعلوه في مكانه عاليه وموضع اجتماعي مرموق، فيفرحوا كلما أصبح فوق رؤوسهم متسلّق بقدميه على أكتافهم وأعناقهم لكي يمسك بالنجوم ويلمس السماء بيديه، هذا الحب الجارف الذي أطلق الوحش الكامن بداخله، أخرج أسوأ ما فيه من صفات وشهوات كان يمكن ترويضها وكبحها قبل فوات الأوان.

كنت أشعر بالحيرة والاضطراب النفسي الشديد والقلق بالرغم من عدائي بدون أسباب واضحة للقلق، فلم أكن أُحب أنْ أشعر به ولا أطيق أن يسيطر على نفسي ولو حتى ليوم واحد فقط.

هذه الحالة النفسية المتملّملة لم تكن تروقني كثيرًا، فكنت أحاول بشتى الطرق المشروعة الممكنة والمتاحة أمامي أن أُزيل هذا الإحساس المدمر من نفسي ومن حياتي، لأني أعتبره عدوي الأول والأخير في هذه الدنيا.

كنت في غاية الشوق إلى العودة لكليتي وأصحابي ودراستي، بالرغم من مرور شهر واحد فقط من انتهاء العام الدراسي الأول.

قد كانوا المرفأ الوحيد الذي أستطيع أن أرسو عليه بكل مشاكلي في حياتي وهمومي وقلقي من الغد القادم.

كنتُ في السنة السابقة قد استطعت تكوين صداقات كثيرة من زميلات لي في نفس كليتي الأزهرية، لكن من أهم تلك الصداقات كان ما يربطني بـ «سها» وأخوها «سعد»، اللذين كانا يسكنان قريبا منَّا في حي السيدة زينب، لذلك قضيت معظم الصيف وأنا أوثق علاقتي بها وبأهلها، ليس فقط لأني كنت أُفضّلها عن باقي زميلاتي، بل كنت أستريح لها عن زميلات المدرسة القدامى.

كان لها أخ رائع متفاهم معها، علاقتهما وثيقة جدًا فكان يعرف عنها كل شيء، وهو لم يكن يخبئ عنها أي شيء، ربما شدّتني تلك العلاقة المميزة بينهما.

في هذا الصيف بعد أن أنهينا عامنا الأول بنجاح، عرفتني «سها» على «آياد» الطالب في السنة السادسة بكلية الطب في جامعة الأزهر، كان يُقيم في مدينة البعوث للطلبة المغتربين التابعين للكليات الأزهرية، وقد آتى من «كوسفو» إحدى الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتي السابق، كان مسلم الديانة، يتحدث العربية

بطلاقة، والعامية المصرية بإجادة شديدة، بعد بقائه ست سنوات في مصر للدراسة،كان يتمتع بوسامة شديدة، مجتهدًا في دراسته، شديد الذكاء، حباه الله بشخصية جذابة محبوبة من الجميع، زملائه وأساتذته على حدا سواء، فكان يُعتبر إنسانًا اجتماعيًا من الطراز الأول، يحب الاختلاط بالآخرين والخروج كثيرًا، وتنظيم الرحلات إلى شتى بقاع مصر، فكان يعرف مصر أكثر منا نحن المصريين، ربما لأنه كان يعلم أنه لن يبقى للأبد هنا، بل سيأتي اليوم الذي سيعود فيه لبلده.

معرفتي بـ«آياد» بدأت تتوطّد أكثر بسبب صداقتي لـ«سها» التي كنتُ أحبها جدًا، وأشعر بقربها الشديد مني، جائز لأن أبوها موظف على قدّ حاله مثل والدي، وكانت حالتهم الاجتماعية قريبة الشبه بنا إلى حدّ كبير.

لكن ما لفتّ نظري فيها أنها إنسانة ضحوكة لا تستطيع أن تكفّ عن الضحك والابتسام لمدة خمس دقائق متواصلة، حتى إذا لم تجد شيئًا تضحك عليه تضحك على نفسها وحالها، فهي لم تكن تحب الوجوه الحزينة المكشّرة، فمتاعب الحياة بالنسبة لها

مادة للضحك والسخرية، تستطيع بها التغلب على كل العقبات والمشاكل والتخطي لمصاعب الحياة المستمرة المتتالية.
عوضتني «سها» وقربها مني عن افتقادي لمعنى الأخوة في أخي «أحمد» واعتبرتها أخت لِّي.

فأصبحت هي وأخوها «سعد» السند العاطفي الذي لم أحظ به، فغمرا جفاء حياتي واقتحما وحدتي، فلم أعد أشعر بالشرّخ النفسي لبُعد «أحمد» عني وعدم اكتراثه بأن أكون فعليًا أخت له، مُقربه منه، فيُظهر شيئًا من الاهتمام ولو بالصدفة لما يربطنا ببعض من أواصر دم وصلة قرابة من الدرجة الأولى، لذلك صارت علاقتنا مع الأيام إلى منطقة اللاّعودة، بلا أمل في اللقاء، مثل قطبّي المغناطيس اللذين لن يلتقيا أبدًا، ولن يُجذبا لبعض بأية حال من الأحوال؛ فبيننا مسافات شاسعة يتخللها بحار ومحيطات وجبال، إذ استطعنا أن نتخطاهم جميعا في يوم ما، لا يمكن أن نعوّضَ ما فاتنا من سنين لم نقضها معًا، وتجارب لم نعشها سويًا، فلا أذكر بيني وبين أخي ذكريات مشتركة، أو اهتمامات واحدة، بل لم نكن نتمتع بصفات متشابهه، لا في الطباع أو الأخلاق، ولا

حتى في الشكل أو الملامح، فأخي مُبتلى بنفس جامدة وبشخصية عصبية المزاج، مُتقلّبة الأهواء، يمتلك حبًا وأنانيةً مُطلقة لنفسه ولذاته، إذا تمنى بشدة أيّ شيء يفعل المستحيل - الصائب منه والخطأ - لكي يصل إلى غرضه بلا تفكير في أحد، أو بحجم التنازلات التي سيدفعها، فلا يفكر سوى فيما يريده هو، ولكي يحقق طموحه الجامح يبيع كل غالي يحسبه رخيصًا.

(٢)

الحب يداهم الواقع

كنت مع «سها» في منزلها في يوم من أيام الصيف، مدعوة عندها على الغداء، فهي كانت تحب المطبخ وكل ما يتعلق به بشكل غريب، من أوانٍ وصوانٍ وملاعق إلى خضار ولحوم وأصناف أخرى. فقلت لها ونحن نأكل

منّة: أنا من رأيّ إنك تفتحي مطعم بعد التخرج، أو تشتغلي في مكان بيقدم أكل، أكيد حتكسبي كتير جدًا، مش بعيد تبقي صاحبة سلسلة مطاعم.

ردت عليّ وهي تضحك:

أنتي بتقولي فيها، أنا فعلا فكرت إني أعمل مشروع صغير لتوريد الأكل للمنازل بالطلب، ويمكن لما ربنا يفتحها على «سعد» و«إياد» يفتحوا مستشفى خاصة، أكون مسئولة فيها عن المطبخ والتوريدات الغذائية.

ضحك «سعد» وقال: أستني لما يجيء «إياد» ونسأله، مش يمكن ميرضاش ونحرجه، لازم نأخذ رأيه الأول عشان كل حاجة تبقى واضحة، يا ناس المشروع ده كلفنا دم قلبنا حنيجي على المطبخ ونرمرم

سها: ماشي يا «سعد» بس خليك فاكرها و«إياد» مش حيمانع عشان هوه بيحبني ومش ممكن يرفض ليّ طلب.

لمعت عيناي عند سماع تلك الكلمات من «سها» وأحسست فجأة أنَّ الطعام يتقلب داخل معدتي، فشعرت بألم فظيع في بطني، مما جعلني أقوم بسرعة إلى الحمام وأُفرغ كل ما كان في جوفي، وشعرت ببوادر الإغماء تنقضّ علي.

سمعت وأنا في الحمام جرس الباب يرن وسمعت صوت «إياد» في الصالة، يا ربي ماذا أفعل؟ لا أُريده أن يراني في هذه الحالة

المضطربة التي أخذتني على حين غرّه، سأحاول أن أبدو طبيعية حتى لا يشعرون بما يدور في خاطري.

خرجت من الحمام للصالة وأنا أشعر أن «إياد» سيقرأ ما بداخلي، وأنه يستطيع أن يخترق روحي بعينيه فينفذ ببصره إلى أعماقي، ويستشعر أحاسيسي ومشاعري تجاهه، فيصدر شعًا خاصًا بالكشف عن ما هو مدفون بداخلي، مثل الأشعة تحت الحمراء.

جرت «سها» عليّ وأخذت بيدي لتساعدني في الجلوس وهي تتساءل

سها: حاسَّة إنك أحسن دلوقتي؟

فأجبت بصوت واهن غير مسموع

منة: شوية مغص وراحوا لحالهم، الحمد لله بقيت أحسن.

نظرتُ ناحية «إياد» الذي صعقني منظره من شدة اصفرار وجهه كأنه هو المريض ولستُ أنا.

قال «سعد» وهو يضحك: البنية كانت حتروح فيها خلاص، إصرفي نظر يا «سها» عن حكاية مطبخ المستشفى العيانين، مش ناقصين وجع بطن.

نطق «إياد» أخيرًا: حاسَّة بأيه دلوقتي يا منَّة بصراحة عشان نقدر
ندیکي حاجة للمغص؟
منة: أنا كويسة يا «إياد»، بس عايزة أروَّح من فضلكوا، حاسة
بإجهاد فظيع.
قلت هذه الجملة وأنا أُمسك شنطتي.
فقالت «سها»: مش ممكن، إحنا كنا ناوين نحضر خيمة التواشيح
اللي منظماها جامعة الأزهر بمناسبة المولد النبوي، «سعد»
جاب التذاكر، وانت مستأذنة طنط، يعني مافيش مشكلة
نخش نستريح في أوطتي لغاية معاد الاحتفال.
وافقتُ على مضض حتى لا يشك أحدٌ بالأمر، دخلتُ مع سها
إلى غرفتها، جلستْ بجانبي على السرير وهي تقول.
سها :فيه أيه يا منَّة مالك؟ في حاجة مضايقاكي نفسيًا؟ ولا فعلا
انتي تعبانة؟

قلت لها وأنا أتنهد :مافيش حاجة يا «سها» كل الحكاية إني أكلت
كتير، أصل أكلك لا يُقاوم، ومعدتي مش واخدة على كده.

نظرتْ «سها» لي بعين فاحصة: يا شيخة، قولي كلام غير دا، إنتي

وشك راح ألوان الطيف لما قلت إن «إياد» بيحبني، وكويس إنه مكانش موجود، شكلك كان حيبقى وحش جدًا إذا أخذ باله.

بدأت أنفعل بصوت متوتر:

مافيش حاجة بيني وبين «إياد» غير كل احترام وود، لأنه ضيف عندنا في بلدنا ويستاهل كل خير.

ضحكتْ «سها» في خبث:طب يا سيتي وأنا قلت غير كده؟ هوه الحب أيه غير كل إحترام وودّ؟ متتشنجيش تاني أنا صاحبتك وبتقولي إني زي أختك لازم نتكلم بصراحة أكتر وتحكي لي على كل مشاعرك وأسرارك.

لم أشعر بشيء غير وأنا أبكي بشدة

منة : إنت مش مصدّقاني ليه؟ أنا بحبه، قصدي بحترمه، بس يا «سها» إنتي لخبطتيني في الكلام ووتّرتي أعصابي.

سها: سلامتك من التوتّر يا جميل، بس هي كلمة الحق طلعت وخلاص، يا منة أنا بحب «إياد» فعلاً بس زي «سعد» أخويا، إنت متعرفيش عنيّ كل حاجة والنهاردة لازم أصارحك، أنا مدَّهولة على عيني وبحب ابن عمي من زمان، بس هوه ولا على باله، لكن حيروح مني فين؟

حجيبه يعني حجيبه، «سها» ليست قوة واحدة، بل ثلاث قوى تنتشر وتتوغل.

وجدت نفسي وأنا أبكي أضحك من كلام «سها» وشعرتُ بالرَّاحة وقلت في نفسي: الحمد لله طلعت مابتحبوش، كنت حعيش إزاي وأقرب صديقة لي بتحب أعز إنسان عندي في الوجود بعد ربي ورسولي وأبوايَ.

فجأة رأيتُ الحقيقة واضحة كضياء الشمس بداخلي، وجدتها تصدمني بمنتهى القوة، كأن حبي له شيء فطري ولدتُ به كطبيعتي وملامحي وتكويني، فليس له أي مفر إلا إليه، و لا ملاذ منه إلا معه، حتى لو كذبت على روحي أمامهم جميعًا بماذا سأراوغ نفسي في وحدتي؟

سها: روحتي فين يا منِّة شكلك بتحبيه من مليون سنة كده وانت مش واخده بالك.

فأمسكتُ بالمصحف الذي كان بجانب سريرها وقلت لها: حطي إيدك على المصحف وإحلفي إنك مش حتقولي لحد، وطبعًا أنا بقصد الكل، بما فيهم «سعد»، أنا عارفة إنك ضعيفة من ناحيته.

سها :بس حتعملي أيه في عينيكي يا حلوة اللي فضحاكي؟ ولاّ في وشك اللي بقى زي لون الليمونة؟ وكمان ماتجيش حاجه جنب صفارُه

فقلت وأنا أحاول قرص خداي حتى ترتد إليهما الدورة الدموية:

منة: ما هو فاهم إني عيانه بقى، ولَمَّا وصل كنت بَرَجع، يعني أعمل أيه تاني؟

خرجنا سويا في هذا المساء، وشاءت الصدف أن يجلس بجانبي تمامًا، فأخذت أبكي خلال أمسية التواشيح في محبة الرسول الكريم لمسلمين من شتى بقاع الأرض، يتغنون بحبه وكرمه وصفاته وأخلاقه صلى الله عليه وسلم.

مرت أيام الصيف ورجعنا للدراسة وكنَّا نلتقي تقريبا يومين أسبوعيا بعد الكلية، فقد كان «سعد» يأتي ليصطحب «سها» وبالتبعية أنا أيضًا يومي الثلاثاء والخميس مع «إياد» ففي هذين اليومين يتزامن وقت إنهائهما محاضراتهما مع وقت عودتنا.

أحسست مع مرور الأيام أن قلبي سينفجر مرة واحدة من ثقل عبء إحتماله سر حبه «إياد»، فهذا السر كان يُرهقني حتى نقُصَ وزني بشكل ملحوظ، مما جعل «إياد» يسألني مباشرة في يوم عيد ميلاد «سها» وقد وجدني انسحبت من الجمع، ودخلت إلى الشرفة حتى أختلي بنفسي وأستطيع التفكير في كل ما أشعر به، وأستمتع وحدي بهذا الإحساس الفريد من نوعه، الذي كان يسري كالدماء في عروقي ويستحوذ على كل انتباهي وحواسي، فلا يدع لي مجالاً آخر للاهتمام بأي شيء غير شعوري بأنني أطفو داخل فقاعة، فحبه كان يُنقي كل جوارحي.

شعرتُ به بجواري، تأكدت من ذلك، لكني لم أشأ أن ألتفت لمواجهته، فقط لأني أعرف أنه يقف بجانبي ينظر إليّ بحدقتي عينيه النافذتين.

انساب حديثه داخل أُذناي ليعلن ليّ بداية امتناني التام لسماع صوته، ونبرة حنجرته الرخيمة، ذات أصداء قادمة من قرار بئر عميق يسكن في وادي يستقر بين جبال مهيبة عالية.

وقْعُ كلماته كان يغمرني بتدفق ماء البحر على امتداد شاطئ مهجور ملهوف لمعانقة أمواجه.

آياد: قاعدة لوحدك ليه؟ وعمّالة تبصي للسما والنجوم فيه إيه؟

انت باين عليكي بتحبي.

وجدتُ أطرافي قد أصابها صقيع مفاجيء، وبرودة سَرَتْ في كل جسدي، فَثُقل لساني وأنا أحاول أن أفتح فمي لأرد عليه.

منة: أنا بحب أمي وأبويا وأخويا، وهمَّا دول اللي شاغلني وواكلين عقلي كله.

ردّ في هدوء: مش إحنا زملاء، يا ريت تعتبريني إنسان قريب منك بيهتم بيكي وبكل أحوالك وعايز يطمئن عليكي.

قلت في نفسي: الحمد لله لم يقل مثل أخيك، كنت سأصاب بإحباط شديد إذا كان حقيقة شعوره ناحيتي مجرد شعور أخ بأخته. فقلت وأنا أنظر للنجوم من فوقنا وهي تتلألأ بدلال:

منة: عارف يا «إياد» المشكلة في أخويه «أحمد»، دايمًا بيبص لفوق، وعايز يهرب من واقعنا ويروح مكان جديد،

يكون فيه إنسان تاني، وساعات كتير بيتهيألي لو وصل لمكانة رفيعة أول حاجة حيعملها إنه مش حيعرفنا، ويبعد عننا لأبعد مكان ممكن مصيره ياخده ليه.

قال لي وقد لمعت الدموع بينما هي تتكاثر داخل مقلتيه من شدة التأثر

آياد : ياه ممكن الابن يوصل به الجحود للدرجة دي؟ لو تعرفي يا منّة أنا بتعذب أد إيه علشان أنا بعيد عن أبواي، وأنا برضه ابنهم الوحيد، صحيح عندي أختين ولكن كل واحد اتجوزت ومش ملك نفسها، «الروس» شكلهم حيخشوا «كوسفو» ومش حقدر أحتمل بُعادي عنهم، في الظروف دي مش مهم أي حاجة لا الشهادة ولا مهنة الطب النبيلة، اللي كان حلم أبي الوحيد إنه يشوفني طبيب، ممكن أضحّي بكل مستقبلي، لأ بحياتي نفسها وأكون جانبهم، عون لهيم، رهن اشارتهم وقت ما يحتاجوني أو حتى أموت بين أحضانهم.

وجدتُ دموعي تنساب مثل شلال المياه بدون توقف، وأحسستُ في تلك اللحظة بأني أشتاق إلى ضمه في حضني، أشق ضلوعي لأخبّئه بين حنايا قلبي وأوردتي المتدفقة بحبه.

كنت أرجو أن يكون «أحمد» في مثل نقاء مشاعره تجاه والداه، أو أن يرزقني الله بابن يشعر نحوي بكل هذا الحب والامتنان في يوما ما.

تمنيتُ حبَّه بشتى أواصر العلاقات الإنسانية، تمنيت حبه بكل ما أوتيتُ من قوة، بكل طاقات الحياة بداخلي، بكياني وكينونتي، بروحي وأنوثتي، بميلادي وموتي، بقضائي وقدري.

أفقت من غفوتي عليه يرمقني بنظرة لن أنساها ما حييت، جعلتْ قلبي ينّتفض في صدري، وتلفني روحي بحرارة هسيس النّار، شعرتُ أنني أسقط من فوق السحاب فيسحبني الدخان ليتلقفني هو بين ذراعيه و ينقذني بحنين عمره من هاوية مروّعه.

في تلك اللحظة دعوت الله أن يكون «إياد» من نصيبي، ربما كتب لنا المولى أن نكون لبعضنا في اللوح المحفوظ منذ الأزل، كيف

لي ألا أتمناه وهو يجسّد لأحلامي كل معاني الرجولة التي لم أكن أعرف لها من قبل هيكل محدد ولا كيان مرئي، لكن الليلة رأيت ولمست معنى الرجولة الحقيقي مُتبلّورًا في وجوده هو، فهي ليست متمثلة في الوسامة، و لا في قوة البدن، أو السلطة المطلقة، أو حتى قوة الفكر، ليست الرجولة في النظرات الملّتهبة، و بالطبع ليست في الكلام المعسول، أو في الإنفاق ببذخ. هي متناقضات تترقرق رحمة، حنان، احتواء...

كانت تتأرجح على طرف لساني وبين شفتايّ كلمة أحبك، التي كانت مترسّخة عندي في اللاوعي ومسلّط عليها الضوء بشدة في بؤرة الوعي والشعور، فأنا أحبه من قديم الزمان قبل أن نُخلَق، وأحبه الآن في هذه اللحظة، وسأحبه غدًا حتى آخر نفسٍ يخرج من جوفي، بكل اليقين والإيمان الذي يمكن أن يملأ مشوار حياتي، وبكل العلو والارتقاء الذي يمكن لروحي أن تصل إليه، سأحبه، وحين تذوب جزيئات جسدي بين التراب لأعود بعدها للعدم سأحبه.

سبحانك يا رب تقذف الحب في القلوب وتغشي الحب عن القلوب تنير البصيرة، وتظلم البصيرة يا مالك المُلك والملكوت إنك على كل شيء قدير.

نصبو إلى حبك يا خالقي، ونتشبّع بهذا الحب الإلهي لكي نستطيع أن نعطي للآخرين ما تبقّى مِنْه لأحباء الأرض الذين تُقَدِّرُ لنا حبهم في الدنيا بمشيئتك.

عدتُ إلى منزلنا في تلك الليلة وأنا منتشية من السعادة، أشعر بخيال الحب الرائع يلازمني كظلّي، فتغيب به عن كل ما حولك إلا عن ذلك الإحساس بفيضان الحب المنّطلق في الفضاء الرحب والذي يكمن بين جنبات وذرات الكون، ينتظر أمر خالقه في الذهاب والتنقل من مكان إلى مكان بسرعة الضوء والصوت، ليرسل أشعته السرمدية للأبد على مخلوقات وكائنات السماء والأرض من يسبّحون لله بحبه وحمده.

(٣)

بداية المر

عندما وصلت منزلنا، وفتحت الباب شعرتُ بإحساسٍ سلبي يقفز عليّ ويستقبلني من على العتبة الأمامية.

رأيتُ أمي جالسةً تبكي، ولمحت أبي يجلس في غرفته وهو واضع رأسه بين كفيّه، شعرتُ على الفور بأن هناك كارثة قد وقعت، وأيقنت أن السبب ورائها هو أخي بدون ذرة شكّ واحدة تنتابني.

جلستُ بجانب أمي أولاً لأَعرف منها الموضوع، حتى لا أقطع على أبي تفكيره، بل لم أكن أجرأ على الكلام معه الآن وهو في تلك الحالة، فتحدثت إلى أمي:

– فيه إيه يا ماما؟ حصل إيه؟ ردت أمي وهي تمسح عينيها وخدّيها بالمنديل الذي كان يبدو مبتلاً من كثرة الدموع:

أمي :أخوكي حيكتب كتابه يوم الخميس الجاي، كَتَّر خيره إنه عازمنا، شوفتي أخرة صبرنا.

فقلت لها وأنا مذهولة مما أسمع:

مين إن شاء الله بنت الحلال اللي وافق أهلها يتكلموا معاه من غير عيلته ما تكون وياه، واتفقوا خلاص على كل حاجة، وحتى ميعاد كتب الكتاب كمان.

فقالت أمي: زي ما يكونوا ما صدقوا إنهم يأخذوه في حموتها لحسن يرجع في كلامه، بنت اخت الأستاذ حبيبه اللي وظفه عنده في الشركة، يظهر عروسته أكبر منه في السن مش مشكلة، كمان كان مكتوب كتابها قبل كده، كل ده مش مهم يا بنتي إحنا عندنا بنت، بس يتفقوا معاه لوحده؟ وهوه إزاي يوافق على حاجة زي كده؟ هو إحنا كنا موتنا؟ ولا أبوه اللي يا حبة قلبي من ساعة ما عرف الخبر محطّش منطق؟ ربنا يستر عالراجل الغلبان الشقيان عليكوا ده.

لم أعرف بماذا أرد عليها، وأحسست بالخوف الشديد على أبي، فدخلت إلى المطبخ لأعمل كوب من الليمونادة الباردة ليشربها.

دخلت غرفته فوضعت الكوب بجانبه وقلت له: بابا علشان خاطري اشرب الليمون ده، وحاول تنام شويه وحياتي عندك.

نظرت إلى أبي وقلت في نفسي: ياه أد كده هانوا على «أحمد» إنه يكسرهم بالشكل ده، للدرجة دي مش حاسس بتصرفاته الجارحة؟

فجأة تذكرت «إياد» والكلام الذي قاله لي الليلة عن أبويه، وصوته المرتعش من شدة الحب والإجلال لهما، فتمنيت أن أراه لألتمس منه القوة والصلابة وصدقه في الحب وقوة الإيمان.

في اليوم التالي استيقظت لأجد أمي في الصالة تجلس مع جارتنا «أم دلال»، كانت سيدة أرملة تجري على رزق أربع بنات، وطبعا أكبرهم «دلال» في سنة أولى هندسة.

منة : صباح الخير يا ماما، أزيك يا أم دلال وازَّاي البنات؟ أخبار دلال أيه مع الهندسة يا ترى؟

أم دلال: الحمد لله يا بنتي، سألت عليكي العافية، دلال بسم الله ما شاء الله ماشية حلاوة في الهندزة، أدعيلها عندها إمتحان النهاردة حتودي فرّخ ورق كبير فيه رسومات.

منة : عندها إمتحان عملي، ربنا يوفقها.هوه بابا فين مش شيفاه يعني؟

أمي : خرج يا بنتي شغله ومش حيجي غير بالليل، عنده مشوار حيعمله لواحد صاحبه بالتاكسي، وبعد كده حيطلع يلف شوية على أكل عيشه، مش عايز حتى يرجع على الغدا علشان مايشفش أخوكي حتى بالصدفة، والواد مش حاسس ولا داري بحاجة أبدًا.

أم دلال: ربنا يهدّي النفوس يا حاجة، ديّ عين صابت بسلامته سي «أحمد»، هوه فيه زيّه في الحارة كلها، أدب وعلام وشباب، هوه صحيح مابيحبش يتكلم مع حدّ من أهل الحتة، وبيطلّع الكلمة بطلوع الروح، لكن ابن حلال مصفّي حيطلع وحش لمين ده أنتوا ناس زي الفل، سيرتكوا منوّرة زي البفتة البيضا.

سألتُ أمي على إستحياء: طب يا ماما حتعملوا إيه؟ حتحضروا كتب الكتاب ولاَّ لأ؟

ردت أمي وهي تشرب من فنجان القهوة:
المصيبة إنه مش عايز حدّ من أقاربنا يجي، ولا من أهل الحارة، ناوي كمان يجرَّسنا، و يخلّي رقبتنا قدّ السمسمة، أبوكي حلف إنه مش حيروح، طلب مني أنا وأنتي نروح نحضر كتب الكتاب ونمشي على طول، يمكن يحسّوا على دمهم ويعرفوا إننا زعلانين واللي عملوه مش أصول، قال ولاد ناس على أيه بس دول مايفهموش في الواجب.

تهدئ أم دلال أمي وهي تربت على كتفها:
أم دلال : ماعاش اللي يقول عليكوا كلمة بطالة، ماحدش حيلومكوا ده إنتوا زعلانين من الجوازة، والجدع غصبّ عليكوا، يبقى حتعزموا الناس إزاي؟ طب دي الفرحة الأولانية مابتّتعوّضش أبدًا.

قلت لأمي وأنا أستعد للخروج لكليتي:

منة :بصي يا ماما «أحمد» حرّ في اختياره وهوه مخطط يتجوز جوازه مستريحة من غير تعب، ويخش بمجهوده، وكمان توصله الجوازه لكل أغراضه وتحقق له أحلامه كلها، بتهيأ لي مش جديد عليه، وعمل طيب إنه مش حيكلفكوا حاجة، متزعلوش وأدعوا له ربنا يوفقه ويهديه.

كان الموضوع بالنسبة لِيّ سهل وبدون ألم، فقد انتزعت أخي من حياتي وارتحت من ناحيته، لأني اعتبرت وجوده لِيّ مثل عدمه سيّان على طول الخط، أتمنى له الخير والتوفيق في حياته بدون أن أقيم له وزن في حياتي بالمرة، وهكذا استطعت أن أتعايش وأتكيّف على هذا الوضع البغيض، لكنه واقع ملموس لا يمكن إنكاره، المشكلة الحقيقية لِيّ كانت تكمُن في أبواي، كان الوضع مختلف معهما و«أحمد» ليس أخوهم، ولكن الكارثة أنه ابنهما الوحيد.

كنتُ أتمنى من الله أن يُهوِّنَ عليهما، ويعطيهما الصبر لمواجهة هذا الإحساس البشع الجاف بالإهمال وعدم الاكتراث الذي يشعران به من أعزّ إنسان لديهما، ولدهما البكر والوحيد.

كان «أياد» في تلك الأثناء يحاول أن يسافر إلى بلده، وبالفعل كلَّم والده في الموضوع بالتليفون، لكنه رفض بشدة عودته في تلك الظروف، وطمأنه عليهم جميعًا، ولكنني كنت أرى في عينيه وفي حديثه عنهم اللهفة والشوق الجارف في العودة لوطنه، فأجبته عندما سألني

منة: أنا مقدرة، وماحدش يقدر ينكر عليك خوفك وقلقك عليهم، بس استنى شوية يمكن المواضيع تتحل من نفسها وسبب القلق يزول، والمساعي الدولية تفلح والروس يطلعوا في وقت قصير من بلدكوا، فاضل ستة شهور عشان تخلّص فترة التدريب في القصر العيني وتبقى حر نهائيا في السفر.

دار هذا الحوار بيننا عندما تقابلنا صدفة على ناصية الشارع الذي يقطن به صديقانا المشتركان، نظر لِيّ ونحن نعبر الشارع إلى بيت «سها وسعد».

آياد : أوعي تفتكري إن أنا رايح مش حرجع تاني مصر، عمر الشقي بقي، وبرضه مش حموت وهارجع أغلس عليكي زي ظلّك.

فقلت له وأنا أتوقف عن المشي: بالله عليك متقولش الكلام ده دلوقتي، ممكن أقع منك في الشارع وأجيب لك مصيبة.

وجدته يتسم ابتسامة جميلة أنارت كل وجهه وجعلته أشد وسامة من ذي قبل: على فكرة أنا مش حزعل لو عملتي لي مصيبة، يمكن إحنا ندّبس في جوازة، ووالدك ميخافش إنه يجوزك لواحد أجنبي مش مصري زيك.

فقلت له وأنا أرمقه بنظرة فيها كل معاني التشجيع، وتمنيت أن يطمأن قلبه لو كان يريد التأكد من حبي له والوقوف بجانبه إذا كان يلمح برغبته أن يتقدم لخطبتي: متقلقش، بابا ما حيصدّق يتخلّص مني ويرمي غلاستي على حد تاني، وحيقولك شيل يا ابني ربنا يصبرك، دي بلّوة إحنا اللي متشكرين.

فقال آياد ونحن نطلع سلم منزل «سها وسعد» بسرعة: على فكرة، بلْوة دي باللغة الكوسوفية يعني هدية أو عطية أو «منّة»

إحمر وجهي من الخجل وقلت له: صحيح ولا بتضحك عليّ؟ الله يسامحك.

آياد : أنا بضحك لما بكون معاكي، مش عليكي، انتي إبتسامة مشعّة بتنور كل اللي حواليها، ردد «إياد» هذا الكلام بينما كانت تلمع عيناه ببريق.

كنَّا أمام باب شقة «سها» وكنت أريد أن أسأله ما يقصده؟ لكنني ترددتُ وخفت أن يكون حديثه معي مجرد كلام مجاملة ليس أكثر، فأُشْعِرَهُ بالحرج والارتباك فيتجنب أن يراني بعد ذلك، وأنا أفضل أن أراه دائما ولا أُربكه ،حتى إذا كنتُ أريد معرفة مشاعره تجاهي وأستريح من حيرتي، وضع يده على جرس الباب قبل أن أرد عليه، فآثرت الصمت على الكلام، أحيانًا يكون الصمتُ أبلغ من كل الكلام.

فَتَحَتْ «سها» لنا الباب، ودخلنا الصالة، وحكيت لهم تفاصيل المشاكل التي وقعت في بيتنا، وكان «إياد» في حالة ذهول من ما يسمع وقال:

آياد: الله يكون في عونهم، أكيد هما مصدومين فيه، خدي بالك منهم يا «مِنَّة» دلوقتي هما محتاجينلك بشدة أكتر من كل الأوقات.

فقلت وأنا أرشف رشفة من كوب الشاي الخاص «بسها» في هدوء: ربنا يستر على بابا، شكله تعبان جدًا، أصله متعود يكتم مشاعره جواه وكل الشحنات السالبة يحبسها في أعماقه.

ردت «سها» وهي تسترد مني كوب الشاي:

سها :إسأليني أنا عن الكتمة بتاعة الفول المدمس دي وحشة قوي.

فقال «سعد» :يا «منة» خدي بالك، في أي وقت يشعر بالتعب أو الإرهاق لازم توديه يشوف دكتور، طالما هوه زي ما بتوصفيه كده، لأن عواقب عوامل الحالة النفسية وتركيبته دي ممكن توصله لنتائج خطيرة، ربنا يستر عليه في الكام يوم الجايين، بالذات يوم الخميس يوم كتب الكتاب.

جاء يوم الخميس إستعديت أنا وأمي للذهاب مع «أحمد»، لم نتطق بأي شيء، وخيّم علينا الصمتْ وكأن المنزل به مأتم وليس فرح، وكيف نفرح بدون أهلنا وجيراننا وأيضًا بدون أبي الذي أقسم أنه لن يتراجع عن موقفه. طوال السنين السابقة كان أبي يتصرف مع «أحمد» وكأنهما شخص واحد، كل ما يريده يَشُقُّ على نفسه أن يرفضه، وبالطبع لم يكن يحتمل أن يطلب منه «أحمد» أي شيء ولا يوافق في النهاية عليه.

إلا هذه المرة، لم أر أبي من قبل يتصرف معه بهذا الجفاء، وعدم الاكتراث لكل توسلاته في أن يأتي معنًا حتى لا يشك أهل العروس في الأمر، ولكنَّ أبي أصمَّ أذنيه وأغلق عينيه وضمّ قلبه إلى صدره ولملمَّ جروحه داخل نفسه وتركنا ثم دخل غرفته لينام في سريره.

نظرت إلينا أمي في حزن وقالت : مش ممكن أسيب أبوكوا في الحالة دي، روحي إنتي مع أخوكي يا «مِنَّة» البركة فيكوا.

فغضب «أحمد» وقال: يا ماما متخافيش على بابا، هوه بس زعلان مني شوية، لكن لما نرجع وتحكي له عن أهل العروسة وبيتهم الفخم وعيشتهم المرتاحة حيفرح وحينسى الموضوع، مش حيفتكر غير سعادتي ومستقبلي المرموق.

ذهبنا نحن الثلاثة إلى منزل العروس، وطبعًا شكلنا كان غير متلائم مع روعة المكان تمامًا، منظرنا كان يعطي الانطباع أننا مثل السمك الذي خرج من أصل بيئته، بحيرته الضيقة إلى محيط واسع ليس له أول من آخر ولا يعرف له قرار،مرت الليلة بسلام وتركنا «أحمد» معهم، واستأذنا بمرض أبي وخرجنا من منزلهم بمفردنا بدون «أحمد».

وشعرت مثلما شعرت أمي أننا فقدناه للأبد، وأنه لم يرتبط بحياة جديدة فحسب، بل خلّع نفسه من حياتنا وتنصّل تماما منًّا، فبكيت مع أمي ونحن في طريق العودة للمنزل بكاءً شديدًا بدون توقف كأننا فقدنا شخصًا عزيزًا لدينا اليوم وذهبنا لنوصله إلى مثواه الأخير، حاولتُ مع أمي أن نتوقف عن البكاء حتى لا نُزيد أوجاع وآلام أبي، فنحن قد فرَّجنا عن أنفسنا وأخرجنا ما بداخلنا في صورة البكاء، أما هو فلن يبكي بالدموع من عينيه، بل يبكي الآن بدمه وعروقه وأعصابه بكاء القلب والروح، الذي يُقطع في الجسم بسكين حامية فينزف الإنسان من الداخل قبل أن ينزف من الخارج، وهو أشد أنواع النزيف والآلام على الإطلاق.

وجدنا أبي يُصلي في غرفته وقد أغلق عليه الباب، وسمعنا صوته وهو يتلو آيات من القرآن، كانت صلاته أشبه بشكوى إلى الله سبحانه بكل همومه، وبثٍ لما في نفسه من أوجاع دفينة لا يراها إلا خالقها، ولا يشعر بها إلا هو جلّ شأنه. فدلفت إلى غرفتي وارتميت على سريري وأنا أبكي، ووجدت نفسي أدعو لـ«إياد» بكل الخير، بأن يجعل الله كل النور والحب بداخله، ليكونا من نصيبه وحظه فيراه مكتوب على جبينه، وأن يُتم الله نعمته عليه، ويوفقه إلى طريق الصلاح والخير في الدنيا والآخرة معًا، فيجزيه المولى على حسن عمله وعبادته.

مرّ شهرٌ ونصف على كتب كتاب «أحمد»، لم يُحاول فيها أن يدعو عروسته مرة واحدة لتناول الطعام عندنا، أو زيارتنا مع أهلها، وفي المقابل لم يحاولوا أن يعزمونا عندهم، ولو حتى من باب التعارف والمجاملة.

جاء «أحمد» في عصر أحد الأيام وهو في منتهى السعادة يكاد يرقص من الفرح فسألته أمي:

خير يا ابني فيه إيه؟ خلاص حتدخل الخميس الجاي؟ ويمكن تكون إتجوزت وجاي تبلّغنا.

فهم «أحمد» مغزى كلامها وقال وهو يجلس بجانبها لكي يحاول إستمالتها: إنتوا لازم تفتخروا بيّ مش تحسسوني إني أذنبت، دلوقتي لازم ترفعوا راسكوا وتقولوا إحنا عرفنا نربي، خلاص بعثة الدكتوراه بقت من نصيبي، وفاضل أسبوعين وحسافر «فرنسا» علشان أكمّل دراستي، ولمّا حرجع حبقى الدكتور «أحمد»، دي تسوى كام قدام الناس.

ترد عليه أمي وقد أرتفع صوتها: ناس؟ هوه أنت كنت عبّرت الناس دي عشان عايزنا نفتخر بيك قصادهم؟ أنت مش عايز تشوف غير نفسك وبس، ماحدش بيهمك لا أهلك ولا الناس، الجنة من غير ناس ما تنداس يا متعلّم يا اللي حتبقى دكتور في قساوة القلب.

ينظر «أحمد» لأمي في استغراب ودهشة من غضبها، فهو لم يستوعب كلمة واحدة، و لم يستقر في عقله معنى أو عظة من كل ما سمعه منها.

فقلت له وأنا أبتسم من بلاهة وغشاوة أخي: دي أكيد بركات العروسة وخالها حلت عليك، ده اللي كنت بتكّتك له من الأول طبعًا.

نظر ليّ أحمد وقال: بس اطلعي منها وهي تعمر، بابا الدنيا مش حتساعه لما يسمع الخبر ده زيّ ما أنا حاسس دلوقتي بإني طاير.

فضحكتُ وتذكرت ما تقوله «سها» عند سماع أحد يقول هذه الجملة:

منة : روح فَصّل دنيا جديدة أوسع شوية وهي تساعك على الآخر، ولاَّ الترزي قافل النهاردة؟

لم يرد، ودخل غرفته وهو منتشٍ من السعادة والغرور أيضًا، فقلتُ لأمي بدون أن ألتفت لها، تكلمت كأني أناجي نفسي بصوت مسموع، من شدة استغرابي لأنانيته العمياء.

منة : إبنك ده معندوش دم، بيطبق المثل بحذافيره اللي بيقول (إن جالك الطوفان حطّ ابنك تحت رجليك)".

إلتفت فجأه لأمي فوجدتها تبكي في صمت مريع يحفر على وجهها شقى وتعب السنين

أمي : بس يا بنتي، هوه اللي حطنا تحت رجليه وداس علينا بكل قوته، كمان مش حاسس بوجعنا.

شعرتُ بغصّةٍ في حلقي، فقد أهنتها بدون أن أدري، فاحتضنتها وأنا أقول:سامحيني يا أمي، معرفش يظهر عليّ أتعديت من «أحمد» وبقيت مدب، عوضكوا على الله بقى، حتى بنتك طلعت مقلب، واحد غبي والتانية مدّهولة بحدف كلام زيّ الدبش.

فضحكتْ أمي والدموع ما زالت تنهمر على خدّيها، فقد شعُرتْ أني أريد أن أُسري عنها وأجعلها تبتسم ولو للحظة.

لم تكن ردة فعل أبي كما توقع «أحمد» فقد قال له كلمتين فقط بعينين زائغتين وذهن شارد: مبروك ربنا يوفقك لكل الخير.

ثم دخل إلى غرفته لينام، كأن النوم كان هو الدواء الوحيد لحالته، يعمل طوال النهار ويُهلك نفسه إلى أقصى درجة، حتى يعود من عمله فينقلب على جنبه لينام ولا يفكر في شيء.

جاء يوم سفر «أحمد» إلى «باريس» وكنَّا جميعًا عندنا شعور داخلي أننا لن نراه بعد الآن، ربما سنراه ولكن بعد فترة غياب تصل لعشرات السنين.

لم أنزل في هذا اليوم، فضّلت أن أبقى بجانب والدايّ في هذا الموقف العصيب عليهما، ولأول مرة أرى الدموع في مقلتي «أحمد»...

ياه، صحوة ضمير أم إحساس بالذنب؟ أم مجرد خوف من المجهول؟ كل ما قاله أبي له وهو يودعه : اتق الله يا ابني في كل اللي تعمله علشان ربنا يكرمك في غربتك.

كنتُ أحاول أن أبدو طبيعية وأنا أودعه وقلبي ليس به ضغينة من ناحيته لانه حرمني من حبه وحنانه، حرمني من أن أعيش معنى الأخوة معه، كان باستطاعته أن يكون دائما بجانبي كأخ وصديق أبثه همي وشجوني، فيكون عون لي أستشيره في كل أموري، ويجعلني موطن أسراره ولكن كل هذا كان مجرد أوهام وأمنيات لم يبق منها غير الذكريات الحزينة.

في مساء هذا اليوم جاء كل من «سعد» و«سها» و«إياد» لزيارتي، وكنت أعلم أنهم جاؤوا ليشغلونا عن بعض ما نشعر به، فيلّهونا قليلاً عن التفكير في «أحمد» وخصوصًا في أول يوم يغيب فيه عن المنزل، وقد أحضرتْ «سها» طبق كبير من أم علي حتى يذوق الجميع منها ونبدي رأينا فيها بصراحة، فكان أول من تحدث هو أبي: والله طعمه خالص يا «سها»، لازم تفتحي محل حلويات كبير وفخم.

فردت سها وهي تضحك بشدة.

سها : محل حلويات بس يا عمي؟ ده أنا ناوية أعمل مطعم فخم بيقدم كل أنواع الأكل، وخصوصًا الأكل المصري، وكمان الحلويات الشرقية والغربية، مش حسيب حاجة، كله عندنا.

قال «إياد» : لازم تيجي تفتحي فرع في كوسفو، لحسن أنا مش عارف حعيش ازاي من غير الأكل المصري اتصرفوا بقى ماليش دعوة.

فقالت «سها» وهي تنظر إليّ: مش يمكن ربنا يكرمك يا سيدي وتتجوز واحدة مصرية تغرقك أكل مصري وساعتها متعرفنيش.

ضحكتْ ببلاهه بينما أنا أغمز لسها بأن تسكت : معقول يا «سها» دا إنتي أكلك محصلش، تشربوا شاي؟

وافق الجميع، ودخلتُ مع «سها» للمطبخ لكي نعمل الشاي، فقلت لها وأنا أقرصها: كان لازم تنسحبي من لسانك وتقولي الكلمتين دول؟ هوه أنتي بتتكلمي من غير تفكير؟

ضحكت «سها» وقالت :الحق عليَّ، بسخن لك المسائل على نار هادية، مش يمكن ياخد باله وينطق؟ أنا مش عارفة همَّا الرجالة كلهم الأيام دي واكلين سدّ الحنّك؟ حتى المزغود «حسين» إبن عمي مش عايز ينطق، اناحشتري كماشة بتاعة دكتور السنان علشان أفتح بقه وأخليه يتكلم بالعافية عشان يطلبني من بابا.

سهروا معنا حتى الساعة العاشرة مساءً، ثم استأذنوا حتى يستطيعوا الذهاب مبكرا لكلياتهم، أيضًا كان يبدو أبي في منتهى الإعياء.

بعد مغادرة أصدقائي تركتُ أمي وأبي في غرفتهم، ودخلتُ لأفكر قليلاً في «إياد» وفي أحوالنا، كنتُ قد استغرقت في النوم بالفعل عندما سمعت صوت أمي تناديني وهي تبكي كأنها تستغيث: إلحقيني يا «منة» أبوكي راح مني.

قفزتُ من سريري بسرعة ودخلت غرفتهما، فوجدت أبي وجهه أصفر ولا يبدي أية حركة مطلقًا، فأسرعت إلى الصالة وأخرجت الأجندة بعد فشلي في تذكر أي رقم واتصلت بنمرة «سها»، فرد عليّ «سعد» فطلبت منه أن يأتي بالطبيب أو بعربة الإسعاف.

كنت أتحدث بسرعة، ووجدت «إياد» يأخذ منه السماعة؛ فلم يكن قد غادر منزلهم بعد: اجمدي، إن شاء الله مافيش حاجة، إحنا جايين مع الدكتور على طول، مسافة السكة.

وبعد ربع ساعة وجدتهم جميعًا أمامي ومعهم طبيب يعمل في القصر العيني جار لنا وعيادته في حيّ السيدة، يسكن بقربنا أعطى أبي حقنة بدأ بعدها يفوق قليلاً ولكنه أخرجنا من الغرفة، إلا «سعد» و«إياد» ظلوا معه.

كانت أمي في حالة انهيار تام، بينما كانت بجانبها أم دلال، فقد رأت الدكتور مع أصدقائي فصعدت معهم لكي تكون بجانب أمي.

كانت أمي تبكي طوال الوقت وهي تقول:الله يسامحك يا ابني عليه العوض ومنه العوض، يعني ربيّنا وكبّرنا ووقت الشدة منلاقيهوش؟ اللّهم لا اعتراض على حكمك.

أم دلال : بس يا أختي قطّعتي قلبي، ده مقدر ومكتوب، ابنه يسافر من هنا الراجل يقع من هنا.

قالت ليّ «سها » في هدوء على جنب: حستنى معاكم الليلة، والصبح حيجي «سعد» مع أمي لنبقى بجانبكم.

فقلت لها : أم دلال مش حتسيبنا وبكرة الحارة كلها حتلاقيها عندنا في البيت، متخافيش روّحي دلوقتي وتعالي مع طنط بعد الظهر علشان توصلي للكلية الصبح وتعرفي أخذنا إيه، أنا ماروحتش النهاردة وشكلي كده مش حروح كام يوم كمان لغاية لما تستقر حالة بابا.

خرج الطبيب مع «سعد» و«إياد» وقال:
جلطة بسيطة في القلب، إن شاء الله تروح مع العلاج والحفاظ على نظام غذائي معين، كل شيء حيبقى تمام، أَفَضَّل ننقله المستشفى كام يوم.

أمي : يعني ماينفعش نعالجه هنا يا دكتور؟
الدكتور: ممكن بس حكتب لِكُمْ على نظام للأكل والأدوية ومواعيدها، كله بنظام دقيق جدًا.

ذهب «إياد» ليأتي بالدواء، قلت في نفسي ماذا أفعل؟ أكلم عروسة «أحمد»؟ لأخبرها إذا أتصل بها لتقول له ما حدث؟ قلت لأمي ما أفكر فيه كله فزجرتني بشدة: يعني حتعمل أيه الست هانم، حتدينا صدقة ولاّ حترجَّع لنا «أحمد»؟ خلاص يا بنتي هوه مش حيرجع غير ومعاه اللي بيتمناه. إسكتي يا منة المشرحة مش ناقصة قتلى.

فلم أقل كلمة زيادة، فقط تحدثت مع زميل والدي في العمل تليفونيًا حتى أبلغه بما حدث لأبي ليأخذ له إجازة مَرَضيَّة.

كان أبي قد اقترب من إنهاء سن المعاش، فاقترحت على أمي أن تقول له أن يسوّي معاشه، فهو لن يستطيع العمل بمواعيد، ومن الأفضل أن يعمل حسب قدرته ووقت ما يستطيع فقط على التاكسي الخاص به.

(٤)

دورة الأيام

مرّ أسبوع على مرض والدي، وكنت أتناوب مع أمي رعايته، فأدخلتُ إليه طعام الغداء عصر أحد الأيام وأنا أبتسم وأقول: عايزه يا بابا رأيك في الأكل بصراحة، علشان أنا اللي عملاه من غير مساعدة ماما

أبي : ربنا ميحرمنيش منك يا «منة»، أكيد طعمه حلو زيك كده، ربنا يخلليكي لينا.

فجلست بجانبه على السرير: بابا عايزة أتكلم معاك في موضوع شاغلني بَقَاله كام يوم، ابن عم «سها»، «حسين» شريك مع اتنين

أصحابه في مكتب إستشاري هندسي، ومحتاجين سكرتيرة فترة بعد الظهر، إيه رأيك بفكر أروح أشتغل معاهم في المكتب.

أبي: هي أمك أشتكت لك من المصاريف؟ أنا بخير وبصحتي وأقدر أصرف عليكوا زي زمان ولاَّ انتي ناقصك حاجة وأنا مقدرتش أجيبها لك؟

منة : يا حبيبي ربنا ميحرمناش منك ولا من عطفك علينا، أنا مش حشتغل علشان محتاجة حاجة، يا سيدي لو فكرنا مع بعض بهدوء حتلاقي إنها فرصة بالنسبة ليّ، أولاً فاضل سنة واحدة وأخلص الكلية، ثانيًا أديك شايف الشغل مش بالسَّاهل، ودول ناس إحنا عارفينهم، تبقى فرصة مش حقدر أعوضها تاني.

أبي : طب «سها» ماتروحش ليه؟ هي أولى بشغل ابن عمها، القريب أحقّ بالشفعة.

منة: أصلك مش فاهم الفولة، «سها» بتحب ابن عمها، بس هوه لسه ماتقدمش رسمي، وأبوها عارف الموضوع، فصعب يوافق إنها تشتغل معاه في مكان واحد يعني وفيه مشروع جواز.

أبي : طيب يا بنتي ربنا يوفقك للخير، المهم يا «منَّة» دراستك، الشغل مش حينفعك لو أهملتي دراستك، مش فاضل غير السنة الجاية وتخَلَّصي.

حمدتُ اللهَ أنَّه وافق، وذهبت لـ «سها» لأخبرها بموافقة أبي، فقد كانتْ تكاليف العلاج باهظة جدًا، وكنت أعرف أن مصاريفنا لن يُغطيها المعاش، وأبي لن يحتمل، وسيضغط على نفسه لكي ينزل بسرعة على التاكسي حتى تعود ميزانية البيت مضبوطة، والعمل الزائد سيكون صعب عليه، كفاه تعب السنين الماضية ومصاريف «أحمد» التي كانت عبأً ثقيلاً على كاهله بجانب البيت ومصاريفي أنا أيضًا.

آن الأوان أن يستريح قليلاً ونقوم نحن بما يُقدّرنا الله عليه، حتى أمي فكَّرَتْ في العمل ولكنني حذرتها من أبي لن يوافق، ربما يَشعر بأننا نريد أن نخفف عليه فيعند أكثر ويستعجل الخروج، سيكون إنتحار بطئ أن يضغط على نفسه كما كان يفعل في السابق قبل مرضه هذا.

تقول «سها» في سعادة: مبروك يا «مِنّة»، «حسين» مبسوط منك خالص وبيقول انك جادة في كل تصرفاتك ومش بتاعة دلع وهزار، شكله كده بيرمي عليَّ بالكلام.

منة : يا «سها» انت مش مدَّلَعة أبدًا، بالعكس إنتي جدعة جدًا وبتحبي الشغل، هوه بس بيقول كده علشان مايجرحش مشاعري بسبب ظروفي.

سها : يا ستي كلِّنا محتاجين من الله، وهوه بس اللي عنده القدرة إنه يُعطي مش حد تاني، أوعي أسمعك تقولي كده لْحسن ربنا ميباركش في الشغل الجديد، استغفري الله.

منة : أستغفر الله العظيم، سبحانه الوهّاب القادر على كل شيء، مين كان يصدق إن كل دا ممكن يحصل في كام يوم؟

فقالت سها وهي تضحك:

سها : المهم إبقي كلمي «حسين» عني كتير، علشان يزهق ويجي يخطبني ويخلص من الزن، كده حبقى محصراه في بيتهم وفي شغله.

منة : المصيبة ليزهق من الزّن ويمشّيني من المكتب، لا يا ستي يفتح الله.

سها : إخص عليكي مطلعتيش جدعة، بعتي الصداقة في أول امتحان حقيقي.

منة : على العموم هوه حيروح منك فين انت حتطيه في دماغك يبقى عليه العوض في دماغه هوه، البحر ورائكم و«سها» أمامكم، بس إعمليله طاجن حمام بالفريك وهوه حيوافق على الجوازة على طول من غير مناقشة، أنا شايفة أن ده حل فعّال جدًا.

مرت بنا الأيام بحلوها ومُرّها، وشاء الله أن نقضيها على خير، فتحسّنت حالة أبي وأصبح يقود التاكسي فترة بعد الظهر من الساعة الخامسة حتى الساعة العاشرة مساءً، وكان الجميع في المكتب يعرفون ظروفي فكانوا يتصرفوا معي بكل الحب والعطف.

كنت أشعر بأن هذا العمل قد جاء نجدةً من السماء، ليس فقط ليخفف من الأعباء المالية ويساعد على مصاريف الكلية، ولكن

لكي أُبعد تفكيري عن كل المشاكل التي كانت تحوم حولي من كل اتجاه كأنها تحاصرني في ذلك الممر الضيق بدون أن يتسرّب إليه أي ضوء، فكأنني سقطتُ في بئرٍ عميق ضيق مظلم خانق.

تخرجت بتقدير جيد جدًا، فكان أشبه بتقدير من الله في مثل هذه الظروف الطاحنة أنْ استطعت أن أتخرج بتقدير ما.

كانت فرحة أبي بي عارمة، فلم أره في حياتي يبدي هذه الفرحة، حتى أنني أحسست أن فرحته بي أكثر من فرحته يوم حصول «أحمد» على الماجستير، واستغربت من هذا، ولكني كنت في غاية السعادة أني استطعت إدخال البهجة على قلوبهم الملتاعة لسفر أخي وسؤاله علينا مرة واحدة فقط تلفونيًا لم نقل فيها تفاصيل مرض أبي بناء على رغبته وطمأناه على صحتنا جميعا، فقد كان يتحدث على فترات متباعدة حتى أصبحت شبه منعدمة.

كان «إياد» يستعد للعودة لوطنه في هذه الأثناء بعد تخرجي مباشرة، فكنت أبكي بشدة خلال الليل، أنام لأصحو وأنا أفكر

كيف أستطيع احتمال حياتي بدونه؟ كيف أواجه كل المصاعب والمشاكل بدونه؟ ماذا سأفعل؟ كيف سأحيا؟

هل كُتب عليَّ كلَ هذا الشقاء لسبب ما لا أعرفه؟ لحكمة لا يعلمها غير الله؟ كنتُ أدعو بعد كل صلاة : يا رب إنني بين يديك، راضية بما تحكم به عليَّ، ولكن أعطني الصبر والقوة لاحتمال فراقه عني، فقد احتملت الكثير، وبكل الرضا سأحتمل أكثر من ما أصابني راضية سعيدة، ولكنَّ فراقه يبدو لعقلي أصعب من كل ما واجهته في حياتي، يبدو ليّ كاختراق الهضاب، وصعود الجبال، وخروج الروح من الجسد، يا الله ساعدني...

جاءت تلك الليلة التي ودَّعتُ فيها «إياد»، بعد أن علمتُ من «سعد» مساء الخميس ليلة سفره مباشرة أنه طلب منه عدم مصاحبته للمطار، فهو يكره ساعات الوداع، بل لا يحتملها، وإنه لا يريد أن يودِّعُنَا بل سيحتفظ لنا في ذاكرته بكل الحب والسعادة التي عاشها هنا في القاهرة.

عَرِفتُ من «سعد» بعد أن حلَّفته بالله ليقول ليّ أن الطائرة ستقلع في تمام العاشرة مساءً.

خرجت يوم الخميس من العمل إلى المطار فورًا بعد أن استأذنتُ أمي أننا سنتأخر في العمل بسبب مناقصة نُحضّر لها في المكتب، كنت أشعر بالضيق لعدم قول الحقيقة لأنها لن توافق على ذهابي إلى المطار لتوديع شاب ليس بيني وبينه أي شيء غير معرفة زمالة، هذا ما كانت تعرفه أمي، ولكنها لم تكن تعرف ما يمثل ليّ هذا الإنسان، فهو معانٍ كثيرة مرتبكة بداخلي، شعاع قمر فضي يؤنس وحدتي في ليل مظلم، بلسم شفاء تطيب لها جروحي وتبرأ بإذن خالقها، فجر أتى بنور الشمس أخيرًا بعد ليل حالك السواد معتم، إيمان من الله نزل على قلب عاص مذنب من سنين.

كان وداعي لـ «إياد» قد أثّر في نفسي بشدة، حتى أنني كنت أحلم تقريبًا في كل ليلة بأنني أودّعه فأصحو من نومي وأنا أبكي من شدة حزني كأني أعيش الموقف مرة أخرى بنفس تفاصيله، بكل المشاعر والآلام التي انتابتني حينها، وحتى بعد مرور خمس سنوات على غيابه امتلأ مسرح حياتنا خلالها بأحداث متلاحقة متنوعة كثيرة بدّلت حالنا، تغيّرنا جميعًا، بالتأكيد أصبحنا أكثر نُضجا، فقد حقق الجميع أحلامهم بحمد الله.

«فسعد» قد أنشأ مستوصف صغير مع بعض زملائه الأطباء في تخصصات مختلفة، واستطاع معهم وبمجهودهم متكاتفين أن يفتتحوا من فترة وجيزة مستشفى صغير قريب في منطقة زينهم، ليس كما كان يحلم ولكنه حقق حلمه على أية حال.

أما أختي في الله «سها» فقد تزوجت أخيرًا «حسين» رئيسي في العمل وابن عمها بعد أن تكشَّف له صدق مشاعرها، كما عرف حقيقة ما يكنّه لها من حب ليس فقط كابنة عمه، بل يُحبها كفتاة يودُّ الارتباط بها كزوجة.

أصبح لها زبائن كثيرون يطلبون منها أن تُقيم لهم الولائم في منازلهم، وأصبح لديها مساعدين ومن يعملون تحت يدها ، فحقَقَتْ حُلمها في أن تصبح متعهدة للولائم والحفلات، تعمل في عمل صميمه المطبخ دائمًا، وأنجبت بنتان توأم في غاية الجمال سنهم ضاحك مثلها.

أما أنا فقد بدت لِيّ الحياة رحلة أرتحل فيها اليوم تلو الآخر، هدفي الأول أن أرضي ربي وأبر أبواي، و لكنني كنت أشعر بوحدة

فظيعة بالرغم من حبي لأهلي وأصدقائي وجيراني، كان هناك شيء ما ينقصني، جزء مني بعيد عني أفتقده بكل كياني، حتى ظهر عليَّ الوجوم وتفشى الحزن بين حنايا وجهي، سكنت الوحدة عيناي، فزحفت داخلهما لتتمكن من روحي.

كنت أستيقظ من نومي لأذهب إلى عملي، أعود بعد العصر أحمل خضروات وطلبات اليوم التالي معي حتى لا تضطر أمي لترك المنزل في الصباح لقضاء مشتريات البيت.

منة : السلام عليكم يا عم جاد، عندك خرشوف النهاردة لحسن بابا نفسه فيه بقى له فترة.

عم جاد: بكرة بالمشيئة حبعت للوالدة مع الواد حسونة ٢٠ خرشوفة حلوين كده زيّك، مش ناوية تفرحيينا بقى يا بنتي عايزين نفرح بيكي ونشوف عوضك، أبوكي نفسه يطمئن عليكي في بيت العدل النهاردة قبل بكرة.

اضطربت من كلام عم جاد، لكنيّ أُحبه ولا أريد أن أصدّه، فهو رجل بسيط يتكلم بفطرته العفوية.

منة : الجواز ده نصيب وماحدش بياخذ أكتر من نصيبه، أنا أهم حاجة عندي دلوقتي صحة أبويا و راحة أمي وشغلي، موضوع الجواز ده بقى يجي على مهله أنا مش مستعجلة.

ينظر لها عم جاد بنظرات لها مغزى، كأنه يعلم ويدري تمامًا كل ما يدور في قلبها ومشاعرها.

عم جاد: ربنا سبحانه وتعالى جعل الزوجة سكن وحضن للراجل، والراجل صخرة تتركن عليها الست، ضلليلة تحتمي فيها الزوجة، يا بنتي أنا حاسس بابوكي كويس لأن عندي بنات، البنت مالهاش غير الجواز مهما اشتغلت وبقى معاها فلوس مش حتشتري لها الآمان والحماية اللي جوزها حيقدمهم لها قبل المهر والشبكة والشقة، المهم الراجل اللي ورا كل ده.

منة : أنا بقى لسه مالقتش الراجل اللي يملى عيني ويقدر يحسسني بالأمان، نصيبي لسه مجاش يا عم جاد، آديني مستنية، ما باليد حيلة، لا أملك غير الصبر والصلاة والشغل.

أتى شهر رمضان الكريم، تزَّينَت السيدة زينب كلها بثوب الفرح لاستقبال هذه المناسبة العزيزة، الكرم الإلهي الذي يُغدقه علينا المولى في صورة شهر رمضان، حامي قيامنا وصيامنا، نبع الفيض بروحانيات الهمم العالية، والإخلاص في عشق الله تعالى وحب رسوله الكريم.

في ليلة ٢٧رمضان وجدت أبي يطلبني بعد رجوعه من صلاة التراويح ويُغلق باب غرفته علينا، ظننت أنه يريد محادثتي عن عريس جديد تقدم لخطبتي، فلم أكن أُحصي عددهم لعدم أهمية الموضوع بالنسبة ليّ.

منة : خير يا بابا فيه حاجة؟

يبدأ أبي بفتح الدولاب لكي يريني مكان عقد التاكسي وقائمة الزبائن الدائمين لديه ممن يقوم بتوصيلهم بالطلب، وأرقام تليفوناتهم ودفتر توفير باسم والدتي فيه مدخراته القليلة التي أدَّخرها في أخر خمس سنين بعد سفر أخي «أحمد» وطلوعه على المعاش.

أبي : أنا عايز أوريكي مكانهم زي أمك علشان تبقي عارفة كل حاجة محدش عارف ميعاده.

قلت وأنا أضمه في خوف ولهفة بالغة

منة : يا حبيبي ربنا يديك الصحة ويخليك مالي علينا الدنيا كلها، إحنا ملناش حد غيرك.

ردَّ أبي وقد امتلأت عيناه بالدموع : هوه دا الموضوع اللي عايز أتكلم فيه معاكي، وأخرتها يا «مِنَّة» يا بنتي أخوكي مش ناوي يرجع، وإذا رجع مش حيساعدكوا ولا يأخذ باله منك ومن أمك، كان نفسي أفرح بيكي مع واحد ابن حلال يتّقي الله فيكي ويسترك.

فركت أصابعي بين يدايّ وأنا أتحدث

منة : علشان كده يا بابا أنا عايزة واحد ابن حلال فيه صفات وأخلاق تخليني أسلّمه نفسي وأنا مغمضة عنيّه، ومتأكده إنه حيحافظ عليَّ و يراعي أُمي بما يُرضي الله ورسوله.

يجلسني أبي بجانبه على كنبته المفضلة

أبي : خليكي صريحة معايا إنتي لسه مستنية رجوع «إياد» لمصر؟
ده بقاله خمس سنين لا حسّ ولا خبر، ماحدش يعرف
جرى له إيه؟

شعرت بقلبي يقفز عند سماع أبي يردد اسمه، وأمتقع وجهي بشدة

منة : إيه اللي فكّرك بآياد يا بابا؟

أبي : أنا متأكد إنك بترفضي العرسان عشان خاطره، كنت شاكك
لكن شكلك دلوقتي أكد لي كل ظنوني، انت معجبة به من
زمان.

لم أشعر غير والدموع تُغرق وجهي وأنا أرتمي في حضن أبي حتى ابتل جلبابه من دموعي.

منة : سامحني يا بابا كان لازم أصارحك انت وماما بالحقيقة،
خفت انكوا تأثروا عليَّ وأنا عمري ما كنت حقدر
أزعلكوا منّي، فضَّلت إني أرفض من غير ما أحرجّكوا مع
الناس اللي بيتقدموا لي.

فأبتسم أبي في عذوبةٍ وتفهّم لمشاعري

أبي : يا ترى يستاهل كل التضحية دي، وتأخيرك في الجواز ورفضك للعرسان المتكرر، لغاية ما طلع عليكي سمعة بالكذب إنك مغرورة.

منة : «إياد» إنسان جميل بكل ما تحمل الكلمة من معنى، جميل في أخلاقه، جميل في طباعه جميل في روحه، جميل في شكله، إنسان جميل يحمل خير وحب يكفّي الناس كلها.

أبي : ياهه، كل الحب ده مخبياه عننا كل السنين دي؟ من يوم ما روحتي المطار لوحدك عشان تودعيه؟ عرفت لأنك يوم سفره رجعتي متأخره، كده برضه؟ مش إحنا دايما أصحاب بنثق في بعض؟ ماقلتيش من زمان ليه الحقيقة؟ عمري ما كنت حغضبك على حاجة يا بنتي، بالعكس كنت حقدّر مشاعركم الصادقة، موقفكم النبيل، لازم كنتي حتحبيه طالما فيه كل المعاني الجميلة دي، قوة الإرادة والتضحية لدينه، أهله ووطنه، بس مين عارف حصل له إيه؟

قبلت يداه وأنا أقول : صدقني يا بابا مش بإيدي، أنا ماقدرش أنساه وأتجوز واحد غيره أبدًا.

نظر أبي بشفقة إليّ : طب إفرضي مارجعش لا سمح الله، حتتصرفي إزاي؟ أوعديني يا «منة» إذا قابلتِ إنسان قدر ينسيكي «إياد» وفيه معظم صفاته إنك تتجوزية، وتحاولي تبدأي حياتك معاه.

نظرت إليه وأنا أبكي وأفرغ كل حزني، فقد فتح أبي الجرح الذي حاولت كتمه لسنوات.

منة: أرجوك ماتخلنيش أوعدك بحاجة مش حقدر أنفذها، كفاية وعدي لـ«إياد» بالانتظار، أكسر وعدي ولاّ أكسر وعدي لك؟ أرجوك يا بابا افهمني.

أبي : يا «منة» ماحدش ضامن عمره، ربنا يهديكي ريحيني واوعديني إذا ربنا بعت لك شخص إستريحتي له ولاقيتي بعض من «إياد» فيه أتجوزيه فورًا، الوحدة أصعب شيء في الحياة، حتواجهي الدنيا من غير راجل إزاي؟

وعدّتُ أبي في هذه الليلة المباركة وقلبي ينزف دمًا، وعيني تذرف ألمًا وحزنًا، فبدأت أُصلي صلاة القيام في تلك الليلة التي يمكن أن تكون ليلة القدْر، وإتجهت إلى الله بقلبي وروحي وكياني وكل ذرة وجزيئة تكمن بداخلي أن يُعيد الله لِيّ «إياد» وأكون له حقيقةً وليس في المعنى أو القول في وعدنا لبعض وعهدنا القديم. بعدها نمتُ قليلاً لأصحو على صلاة الفجر، فجاءت أمي لتوقظني، ثم سمعتُ صوتها حين كنتُ أتوضأ تنادي على أبي لتوقظه، لكن لم أسمع أبي يرد عليها، وسمعتها تشهق بصوت مسموع.

أمي : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

فجريت على غرفة النوم لأجد أبي مسجّى على جنبه الأيمن، ويبدو كالنائم، وعلى وجهه علامات الارتياح والطمأنينة والسلام.

جاء الجميع عندنا في صباح اليوم التالي، فقمنا بواجب الدفن، ورجعت مع أمي وأصدقائي وأقاربي وجيراننا إلى المنزل بدون أبي، فكان إحساسٌ ثقيلٌ أن ندخلَ إلى بيتنا فلا نجده في انتظارنا، ولكن عزائنا أنه توفى في أيام مباركة، العشر الأواخر من رمضان، حيث في آخره عتقٌ من النّار، رأيت ميراث أبي لنا في

حب الناس... دموع أم دلال وبناتها الأربع، حزن عم «جاد» وزوجته وأولاده، كل من كان يتعامل مع أبي في الحياة جاء ليعزينا ويواسينا في مصيبتنا بفقدانه.

كانت أمي تنظرُ إلى صورة أبي وبجانبها صورة أخي «أحمد»، كأنها تواسي نفسها في فقدانها لهما سويًا، فغياب أخي وهجرته واستقراره نهائيا في فرنسا بمثابة شهادة موته بالنسبة لنا. أبي غاب بجسده فقط لكن روحه وحبه سيظلّ يدفئنا، أما أخي فقد غاب بجسده وروحه وحبه لنا منذ سنوات، مع الفارق الوحيد أننا لن نسمع صوت أبي مرة أخرى، لكن «أحمد» يتحدث معنا، ربما كل ستة أشهر للاطمئنان فنسمع صوته، كنت أجلس مع نفسي فتقتحم الذكريات تفكيري، عندما كان يصطحبنا أبي إلى مولد السيدة زينب، كيف كنا نمشي بجانبه في نشوة عارمة وإحساسنا البريء بالسعادة لشرائه لنا بعض الأشياء البسيطة من الباعة كانت بالنسبة لنا كنزٌ ثمين، مسدس لعبة لأخي، عروسة ليّ...

كنّا نمتلك الأمان والأمل لوجوده بجانبنا فيُضلّل علينا بحنانه، نفترش شطآن حبه كالمحيط الراسي بعمقه وامتداده الشاسع داخل حياتنا.

كنّا كل شيء يتذوق حلاوته في الدنيا، بالنسبة له كنّا زاده وزواده، عكازه وملاذه الذي يدخرهما لأيامه ولياليه القادمة، كنّا الماضي، الحاضر والمستقبل الذي رسم خطوطه عليهم ووضع هدفه المرتقب بشوق عمره كله، كنّا حلمه المؤجل للغد، وليد اليوم من مخاض كل فجر.

كنّا معنى كلماته، رسوخ إيمانه، ابتسامة شفتاه،كنّا نقاء قلبه، فرحة وجوده، ونبض عروقه.

بدت السنوات الماضية كالصديق الذي سافر بعيدًا، لا ننتظر عودته لكن نسترجع ذكرياته حين كان بصحبتنا آنفًا، عندما كان هذا الصديق لا يزال بيننا نتداوله، نعيشه ونملكه في قبضتنا، ضحكاتنا الصغيرة، هفواتنا البريئة، أفكارنا العفوية التي كنا نرتجلها بفطرة الطفولة عندما كنّا أطفالاً نلهو ونلعب في الحارة مع أولاد عم «جاد»، بنات «أم دلال»، كانت الحياة سهلة بدون تعقيدات،

كل شيء كان يبدو في الإمكان تحقيقه، كل الأحلام في متناول أيدينا، لأنها لم تكن بعيدة، تلك الأحلام التي كان أقصى مدى لها عندما نتناول العشاء في الدَّهان، عشية يوم خميس نأكل كفته ونحللي بأرز بلبن، نسهر في ربوع الحسين، خان الخليلي، ونختم الليلة مع أبي وأمي، في مسجد السيدة زينب، نصلي الفجر هناك ثم نعود لمنزلنا سيرًا ونحن نشعر بالقناعة والرضا التام بحياتنا.

تلك الذكريات التي أصبحت صورًا باهتةً من فيلم قديم بالأبيض والأسود، لقطاته المتكرّرة أشاهدها بين خلايا عقلي، تفتح لِّي بابًا يُفضي للماضي بكل تفاصيله لكي أستمد منه ذكريات براءة أخي التي فُقِدَتْ على مدار السنين، دِفء وجود أبي معنا بينما أجترّ وَنَسه كرحيق للحياة، كصورة مرئية مُجسَّمه له تؤازرني في وحدتي، تواسيني، تملأني بالشجاعة والطاقة للاستمرار كي أواجه مصيري المجهول.

(٥)

الضوء الساطع

كان صباح يوم وقفة عرفات، إستيقظت من النوم على صوت أمي ترحب بأم دلال التي جاءت تُفرّج أمي على منتجاتها اليدوية من المفارش وأطقم السرير، وقمصان النوم المطرزة.

أم دلال : أنا جاية عشان ست البنات تِنقي وتختار قبل أي بنت تانية في الحتّة، إنت عارفة يا حاجة غلاوة «منّة» من غلاوة بناتي.

تتنهد أمي في حرارة يملأها الشوق والألم

أمي: أه... يا أم دلال، يا ريت تكون الحاجات دي بُشرة خير، أنا بجهزها من غير ما يكون لها رأي في الذوق، لأنها مش عايزة لا تختار ولا تشتري.

أم دلال : صدّقيني يا حاجة بنتك محسودة، فيه عين صيباها يا
ختي ورابطة عدلها، أه الحسد مذكور في القرآن، لابد
تروح تصلي فبيوت الله من آل البيت كلهم ربنا حيكرمها
ويحوش عنها.

يدق جرس الباب في رنّات متتالية سريعة، تقوم أم دلال لتفتح
الباب في خطوات متلهّفة.

سها : أزيك يا أم دلال، أخبار بناتك أيه؟
أم دلال : حلوين يا حبيبتي الحمد لله.
سها : صباح الخير يا طنط، كل عام وأنتم كلكم بخير السنة الجاية
بإذن الله تكوني حضرتك وماما واقفين على جبل عرفات،
يوعدنا بها جميعًا.
أمي: آمين يا «سها» ماجبتيش معاكي البنتين ليه؟

ترد «سها» وهي ما زالت واقفة
سها : أصلي ناوية آخد منة وننزل وسط البلد عايزة أشتري طقم
للعيد، عايزاها تبقى معايا.

أمي : خشي لها صحيها من النوم، خلليها تنزل تخرج وتفُك عن نفسها شوية، حتى يوم الأجازة تقعد في أوضتها بين أربع حيطان ماعرفش ليه؟

تتوجه «سها» إلى غرفة «منة» لتدلف إلى الداخل.

سها :حضرتك لسه نايمة، والله عال، قومي عشان ننزل نشتري لوازم العيد مافيش وقت.

أقوم من النوم في تراخي وكسل شديد.

منة : يا صباح الزَّن الخام، يا بنتي أنا صايمة النهاردة، الله يكون في عونك يا «حسين»، هما «عنبة» و«بطيخة» فين ماجيبتهمش معاكي ليه؟

سها : دا إنتي شدّه السَّلخ عليَّ قوي إحنا في يوم مفترج ومعظم الناس صايمة، المفروض تصومي عن غلاستك كمان.

منة : طب خلليكي قاعدة عبال لما أغسل وشّي وأغير هدومي وبعدين أفوق لك يا أم الفواكه.

إنتظرتني «سها» في غرفة نومي حتى رجعتُ فأغلقتْ الباب وقالت في صوت هامس

سها : أصل في واحد عايز يتقدم لك و مستعجل جدا عشان عايز
يسافر لأنه مش بيشتغل هنا.

فقلت لها و أنا أسخر : واحد أيه راجل !

سها : يعني حيكون واحد شاي في الخمسينة؟ إرحميني من شغل
الإستعباط بتاعك ده.

منة : إرحميني انتِ من حكاية المقابلات دي، مش حينفع
صدقيني، ده أنت أقرب واحدة ليه وعارفة كل حاجة،
يبقى لازم تقدّري ظروفي، الحكاية من أولها كانت على
أيدك.

تجلس «سها» على السرير وهي تمسك بيديّ.

سها : يا أمي شوفيه مش حتخسري حاجة، شوفيه وإرميه البحر
أخذ الشر وراح، هوه أنا بقولك أتجوزيه النهاردة؟ لكن
متحرجنيش مع الجدع، دا زميل «سعد» من أيام ثانوي.

فارتعشتْ أوصالي وشهقتْ : كمان صاحب «سعد»، هو أنا
خلصت من صاحبه الأولاني لما حشوف التاني، ديّ شوطه بقى.

فابتسمت سها وهي تنظر لي بإشفاق:

سها : طب أقولك حاجة خليكي قاعدة في غرفتك وإحنا حنيجي نقعد في الصالون، ومتطلعيش من أوضتك وأنا حخلص القاعدة في نصف ساعة، وأقلبه بدري بدري، إبقي تعالي في الآخر وسلمي علينا من باب الذوق عشان الإحراج بس، أيه رأيك موافقة؟

تُريحُ «منة» جسدها على السرير بينما تمنع دموعها.

منة: هي فكرة عبيطة جدًا، بس حاضر حنفذها عشان «سعد» مايزعلش مني، أمري للهز

غادرت سها منزلي بدون أن نخرج سويًا. وقفتُ أودعها على الباب وهي مازالتْ تؤكد على الميعاد بيننا وتدعو الله أن يهديني.

وجهتْ أمي كلامها لي، كانت ما تزال منهمكة مع أم دلال في اختيار المستلزمات الخاصة بتجهيز العرائس في حماس مُتدفِّق كأن حفلة زفافي ستقام غدًا.

أمي : مانزلتوش مع بعض يعني، هي «سها» غيّرت رأيها ولا انتِ
اللي كسّللتي؟

أنظر إلى أمي ثم أقول: ماليش مزاج أخرج.

تقوم أم دلال لتضع عليَّ قميص نوم لونه سيمون غامق، وهي تقول بإعجاب

أم دلال : ما شاء الله شكله يجنن عليكي يا حبيبتي، ولا إيه يا حاجة؟

أمي : صحيح لونه ماشي مع بشرتك جدًا يا «منة».

أنظر إلى كلتاهما في ضيق، لكنّي أحاول أن أبدو طبيعية حتى لا أُجرحهما بأي شكل.

منة : ماما... «سعد» و«سها» جايين مع ضيف لهم بعد الفطار، حدخل أعمل كيكة نقدمها مع الشاي، عشان ماحدش يِعَيب علينا في إكرامنا للضيف.

أم دلال : ده لازم عريس جاي عن طريقهم، شوفتي يا حاجة انتِ قلتي الحاجات دي بُشْرِة خير، عشان تعرفي الحمد لله أنانيّتي زَي الفل.

كنتُ قد اتفقتُ مع «سها» أن يأتوا بعد أذان المغرب بساعة، حتى يمكنني الإفطار وصلاة المغرب.

جاءوا في الموعد المحدد، وسمعت أصواتهم من غرفتي، هذا صوت «سعد» وهذا صوت «سها»، أما الصوت الثالث المفروض أنه صوت العريس فقد بدا لي أني سمعت هذا الصوت من قبل، قرَّبتُ أذني من الباب، إرتعشت من قمة رأسي إلى إصبع قدميّ، هل أحلم أم أنني وصلتُ إلى مرحلة الهذيان وأصبحت حالتي مرضّية، فأنا أتخيل سماع صوت «إياد».

فتحتُ باب غرفتي وتقدمت إلى باب الصالون، وقفتُ على العتبة وأنا أنظر إلى الجالسين بداخلها وجها وجه، حتى وقعت عيناي عليه، إنه هو «إياد»، قد أطلق لحية صغيرة زادته وسامة، وقد أصبح شكله أنضج، وزاد لونه سمرة لوحته بها أشعة الشمس فبدت ملامحه أخشن.

فتحتُ فمي لأنطق باسمه فلم أشعر بشيء غير وأنا أنظر في عينيه، وقد جثى على الأرض بركبتيه بجانبي على الأريكة وهو يحاول أن يُفَوِّقني، كانت «سها» أول من تحدث:

سها: هو انتِ مش حتبطّلي العادة الغم اللي فيكي دي؟ لازم دَمَّنا ينشف وتخُضّينا؟ الحمد لله إني خلّفت وإلا كان زماني قطعت الحمل.

آياد: خلاص أيام الفراق والشوق والحرمان خلصتْ، أنا جيت عشان أسترد قلبي وروحي وكياني اللي سبتهم في مصر.

فألقيتُ برأسي إلى الوراء وبكيتُ بكاء الفرج الذي أتى بعد طول إنتظار، بكاء المتلهف على الماء عندما يجدها وسط الصحراء، بكاء البحار التائه الذي تعطّف الله عليه وأراه نور الفنارة وهو يقترب من الشاطئ رويدًا.

منة: أنا مش مصدَّقة، أنا أكيد بحلم، ودلوقتي «سها» تيجي تصحيني من الحلم الجميل.

آياد: مافيش حد حيصحيكي من النوم غيري أنا بعد كده، أهلي كلهم نفسهم يشوفوكي، لأني مكنتش بتكلم غير عنك هناك، كنتي دايمًا معايا بستحمل بيكي الهوان والذُل والتَّقشف اللي عشناه في الخمس سنين اللي فاتوا.

ينظر «سعد» إلينا في سعادة بالغة بعد أن مَنَّ الله علينا بنعمة اللقاء بعد طول غياب وإنتظار.

سعد : يالا بقى إحكي لنا عن الليلة اللي قضيتها في الممر تحت الأرض، آدي «منة» هنا معانا، أتفضل قول لنا كل الحكاية، مرضيش يتكلم غير قصادك.

يتنهّد «إياد» كمن يُعيد تفاصيل وقت محنة عصيبة، يأبى قلبه ويرفض عقله أن يجترّ آلامها.

آياد : أنا صمّمت أحكيها مرة واحدة وكلنا، مجتمعين لأنها ذكرى ثقيلة جدًا على نفسي، ماحبش أفتكرها مرتين، على فكرة أنا ماحكتش لحد عن اللي حصل بالظبط غير لكوا دلوقتي.

تقطر عينيّ «منة» حنانًا وحبًا إشفاقًا عليه من ذكريات الأحداث الأليمة التي مرّت عليه هناك.

منة : ماتتكلمش إذا كان الكلام حيتعبك.

يبدأ في الكلام بعد أن يشرب من كوب الماء

: كان وقت شتاء، إستمر المطر ينهمر لمدة ثلاثة أيام مُتَّصلة، أمي اكتشفت نفاذ المؤَّنِ من البيت، المواد الغذائية الأساسية، ذهبتُ للمدينة لكي أشتري ما ينقصنا من تاجر صديق قديم لأبي،كان يُجَنِّب لنا حصّتنا كل شهر، في طريق العودة وجدت الطريق لبلدتي مغلقٌ تمامًا بسبب المطر فاضطررتُ أن أسلك طريق آخر مختصر لكنَّه وعرٌ جدًا يستخدمه الجنود الروس في انتقالاتهم.

يأخذ «إياد» نفسًا عميقًا من الهواء ثم يسترسل.

:حاولتُ أن أتجنبهم عشان ماحدش يشوفني فياخدوا الأكل أو يسرقوا باقي الفلوس اللي معايا، أو يستمتعوا بتعذيبي وقتلي، وصلت لنص الطريق، لمحتهم بيستريحوا جنب النهر، لاقيت نفق تحت الأرض بالصدفة استخبيت فيه لغاية ما يبعدوا عني، انتظرت طوال الليل حتى نصف اليوم التالي وحدي مخنوق في الظلام، أُصبِّر نفسي وأتخيل بعد الليل والحصار في الممر حتكوني منتظراني في أخره زي نور الشمس.

كنتُ أبكي بينما أستمع لحديثه، وأتصور مدى الخوف والوحدة التي خاضها في تلك الليلة.

بدأ «سعد» في سؤاله: يعني هُمَّا كانوا بيصَفوا أي شخص يجي قدامهم، بيحاربوا حرب عصابات، نهب وسلب وقتل بلا مبرر، مجرد إنتقام.

آياد : كل اللي أقدر أقوله إنِّي اكتشفتْ حقيقة أكيدة كل التَّصفيّات مش عِرقية بس، لأنَّ الحرب مش عشان أرض أو استعمار مناطق غنية، أو فرض السلطة على شعوب مُعيَّنة، الحرب بدأت من أيام الصلبيين والمسلمين، غزو التتار واختياره للعالم الإسلامي بالذات، تدميرهم للثقافة والحضارة الإسلامية في «بغداد» و«الأندلس»، الحرب مش على البلاد أو الشعوب، الغاية الأساسية إبادة ونسّف المسلمين.

تقول أمي في دهشة وهي ترفع يدها للسماء

أمي : قادر ربِّنا يخسّف بكل خططهم الأرض، وينصر الإسلام والمسلمين على أعدائهم كلهم اللي في السِّر والعَلن ﴿ويمكرون و يمكر الله والله خير الماكرين﴾.

وقفت «سها» وقالت في حزم: بُصوا بقى، إحنا بإذن الله لازم نستعد لهم بعيال كتير تسد عين الشمس، تقدر تحارب وتجاهد في كل الميادين العلمية والاقتصادية، إحنا نكتب الكتاب بكرة ونعمل الدُخلة بإذن الله يوم الخميس اللي جاي.

ينظر «إياد» إلى «أم منة» في بشاشة و قال: سها بقى أختي التالتة وأنا جايبها عشان تتكلم بدل أهلي، لأن ما شاء الله كلامها كتير جدًا.

تنظر «سها» له بعتاب وهي تضحك وتقول:

سها : ماشي يا عم «إياد»، انتِ عريس بقى ولازم نِفَوّت لك، ها يا طنط إحنا مستعجلين عشان لازم كلكوا بعد الجواز تستعدوا للسفر، وأكيد حتعملوا هناك فرح تاني في كوسفو، بس المعازيم حيتغيروا لكن طبعًا العروسة والعريس زي ما هُمَّا مش حنغيرهم.

ردت أمي: العروسة للعريس، هما بقى يسافروا أنا مقدرش أسيب بيتي وأهل الحارة بعد العمر دا كله، أنا زي السمك ما اطلعش من الميّه اللي عشتْ فيها عمري بحاله، أموت.

كنتُ أَهُم أَنْ أتكلم مع أمي لإقناعها بالسفر مَعَنا، ولو لبعض الوقتْ، فوجدت «إياد» سبقني بالكلام: بصي يا ماما أول ما نكتب الكتاب حبقى إبنك رسمي، يعني ماقدرش أسيبك وأسافر مع «منة»، بلدي حتعجبك جدًا وأمي ست طيبة حتحبك زي أختها، وكلهم هناك حيبقوا أهلك، وإن شاء الله تحبيهم وتستريحي معنا، ولما تزهقوا من هناك نبقى نيجي نصيف في مصر، وبالمرة أهلي ييجوا يشوفوا القاهرة والأزهر ومساجد آل البيت وأولياء الله الصالحين.

فقلت لأمي وأنا أقبل يدها في إستعطاف : عشان خاطري يا ماما إذا مجتيش معانا أنا مش حسافر، ومش حتجوز كمان، تفتكري ممكن أسيبك تغيبي عن عيني لحظة واحدة؟ كفاية غربة وفراق، وحرماني من «إياد» السنين اللي فاتت، مكتوب عليًا ألاقي حبيب عشان أفرّط في حبيب تاني بداله، ده حرام، إذا كنت أهون عليكي يا أمي، خلاص حرضى بنصيبي.

ردت سها وهي تقبّل رأس أمي: في عارضك يا حاجة، إحنا ما صدّقنا، أديكي شايفة النهاردة كُنّا حنجرّها عشان تشوف

العريس، ولولا إنها سمعت صوت «إياد» مكانتش طلعت من الغرفة أبدًا، ربنا يهديكوا يالا عشان نقرا الفاتحة ونحجز المأذون.

وافقتْ أُمي على مضضٍ حرصًا منها على مصلحتي، وحتى لا تُحمِّلني مشقة القلق عليها.

إتفقنا على كل شيء، وحددنا ميعاد كتب الكتاب، وأننا سنقيم حفلةً بسيطةً في منزلي، نظرًا لظروف وفاةِ أبي، في اليوم التالي ذهبنا لمسجد الحسين رضي الله عنه، بجانبي عم «جاد» الذي وَكَّلته عنِّي في عقد الزواج، أما «سعد» و«حسين» زوج «سها» كانا الشاهدين، نظرتُ إلى أم دلال التي ظلَّت تُزغرد هي وبناتِها مع «سها» بالتناوب كمجموعة الكورال النسائي. عُدْنا جميعًا إلى الحارة لنجد أهلها اتفقوا لتزيين عمارتنا ومنزلي من الداخل، وضعوا فيه كوشة صغيرة مكوّنة من الورود المحاط بلمات ملونة، أما «سها» فقد أعدَّت البوفيه الخاص بالاحتفال كما لم تفعل لحفلة زفاف من قبل.

كنت أشعر بأنني في حالة إنعدام وزن تام، كأنني أطفو على سطح القمر بدون الشعور بالجاذبية الأرضية، فأنا أطير بدلاً من المشي. أما «إياد» فكان ممسكا بيدي دون أن يُفلتها لثانية واحدة، وكأنني سأهرب منه إن تركها.

كنت أنظر إلى أمي التي كانت تبكي من شدة فرحتها بي، ربما لأنها تذكَّرت أبي، فقرأتُ في عينيها نظرة افتقاده التي كنتُ أعرف أنها ستولد لكنها ستحاول إخفائها عني وعن الجميع.

لكني رأيتها جليّة تَترقرق بين دموعها، لتنشر صورة أبي جناحيها على آفق بياض مقلتيها، فتملّيتُ من انعكاسه بداخلهما.
كانت هذه الليلة حلم استمر يراودني منذ نعومة أظافري، داعبني مجددًا عندما تعرَّفت على «إياد»، ألحَ في أن يتحقق بعد سفره وظروف غيابه، دنا مني حتى لمسته عندما تسنَّى حدوثه الليلة.

جاء اليوم الذي حددناه موعدًا لسفرنا إلى «كوسفو» وجاء الجميع لتوديعنا في المطار، تذكرتُ يوم وداعي «إياد» والفارق الكبير بين تلك الليلة والآن،كيف أنني أُمسك بيد زوجي وأمي، أُودِّعُ جيراني وأصدقائي، أو بمعنى آخر إخوتي «سعد» و«سها»

اللذان كانا يؤكدان علينا أن نتصل باستمرار، ونحاول زيارتهم في أقرب فرصة ممكنة، فنرسل خطابات حتى نعود للقاهرة.

كنتُ أشعرُ أنني داخل نفس الحلم الذي كانَ يعتصّرني كلّما أستعيد تفاصيل وداعي «إياد»، لكن هذه المرة الحلم الحزين أصبح واقعًا جميلاً بفضل الإيمان بالله والصبر والحب، فكلُّ ما ينقص حياة أيّ إنسان يهونُ إذا لم يفتقد في حياته تلك العناصر الثلاث التي يمكن لوجودها أن يغير أشياء كثيرة تبدو مستحيلة المنال، أما اختفائها يمكن أن يُضيّع ويَطمس أشياءً أكثر سهولة، أبسط من أن نفقدها على أية حال.

ففي حالتي تمسّكت بتلك المفاتيح الكائنة في قاع الروح... الإيمان، الصبر، الحب، كانوا هم سُبلي لفتح باب الحياة والسعادة.

فبدونهم كنتُ سأبقى مسجونة داخل ممر النفس الضيق الذي يمكن أن يَحبس الإنسان فيه ذاته، وتصبح الدنيا بما رَحُبتْ أضيقَ من كل الممرات، أضيق من ثَمِّ الخياط حتى، إذا كان الإنسان يعيش في قصر منيف،أو كوكب كبير، لن يهنأ أو يستشعر بأيّة

نكهة للحياة، الحزن كالفرح، الجمال كالقبح، الوجود كالعدم، كل شيء مثل أيّ شيء، النهار يوازي الليل، الحب يخالطه الكره، الصمت حروفه من الكلام.

فيكون خلاصه الوحيد في المفاتيح الموجودة بداخله التي عطّل وجودها أو قذفها بدون أن يدري ماهية حقيقتها، البريّق اللامع الذي يضئ لنا دروب الحياة وظلمات الدنيا.


شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥   (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net